

اقرا

حسین قادری

مذکرات

سائخ مصری فی مصر!



Bibliotheca Alexandrina



01262332



دارالمعارف

اقرا

[۵۷۰]

مذکرات
سائخ صدي في صر!

حسین قـدری

مذکرات
سائح مصری فی مصر!



دارالمعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة
من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ
أبناء الشعوب العربية. وأن يتفجعوا، وأن
تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

الإهداء...

لو أن كل الذى تعلمته من حروف اللغة العربية
كان ثلاثة حروف فقط؛ لكفانى ذلك..
ولو أن كل ما أستطيع أن أكتبه من حروف
اللغة العربية كان ثلاثة فقط؛ لكفانى ذلك..
ولو أن كل ما أستطيع أن أنطقه من حروف
اللغة العربية كان ثلاثة فقط، لكفانى ذلك..
لست أريد من اللغة العربية أكثر من أن
أستطيع أن أقرأ اسمها، وأن اكتب اسمها، وأن
أنطق اسمها..

اللغة العربية عندى ثلاثة حروف فقط...

حسين قدرى

الفصل الأول

في بيتنا مارجريت!!

كانت السياحة دائما من بين اهتماماتي.. قمت برحلات عديدة نشرت معظمها في مجلات عربية وإنجليزية وفرنسية.. وكنت أنا السائح دائما بطبيعة الحال.. أكتب عما أراه ويشير انتباهي ويلفت نظري في البلاد الأجنبية التي أزورها.. أكتب كمصري، لأن الذي أراه بعين مصرية يختلف عن الذي يراه غيري بعين أخرى.. ولو ذهبنا صديقين مصري وألماني - مثلا - كسائحين إلى دولة ثالثة، ولنقل فرنسا مثلا.. فإن الذي يلفت نظري ويشد انتباهي سوف يختلف قطعاً - وبشدة - عما يلفت نظري زميلي الألماني ويشد انتباهه.. ما أراه أنا غريباً وعجيباً، قد يراه هو عادياً جداً لا يتوقف عنده ولا يلفت نظره على الإطلاق، وما قد يراه هو غريباً وعجيباً قد أراه أنا شيئاً عادياً جداً.. ولنأخذ مثلاً واحداً: فلو رأينا فتى وفاتة في حضن بعض يتبادلان قبلة طويلة في الشارع، فلن يلفت ذلك نظر صديقي الألماني لأنه يراه في وطنه كل يوم وكل دقيقة، أما أنا فسوف

يلفت ذلك نظري جدًا لأنه لا يحدث في بلدي، ليس فقط لأنه غير مسموح به بحكم القانون، لكن أيضًا بحكم التقاليد والتربية، وبحكم نظرتنا الشرقية إلى الحب والعواطف على أنها أمور خاصة جدًا لا تحدث إلا بين ٤ جدران مغلقة.

وفي الوقت نفسه لو شاهدنا، صديقي الألماني وأنا، في أحد شوارع باريس فتاة منقبة أو حتى محجبة، فلن أكلف نفسي عناء النظر إليها نظرة ثانية، لأنه منظر معتاد ومألوف وغير غريب على عيني المصرية أو الشرقية وأراه كثيرًا في مصر فهو شيء غير جديد عليّ.. بينما سوف يشهر صديقي الألماني كاميرته ويلتقط لها عدة صور لكي يريها لأصدقائه الألمان عند عودته لوطنه باعتبار أنه قد رأى شيئًا غريبًا لا يراه في بلده.

وهذه هي الفكرة الأساسية من السياحة: أن نرى أشياء مختلفة عن التي نراها في وطننا.

وفي الوقت نفسه فقد كان يشغلني كثيرًا شيثان «سياحيان»: الشيء الأول هو: كيف يرى السياح بلدنا، مصر؟ كيف ترى العين الأجنبية أو الأوروبية مصر؟ ما الذي يعجبهم أو يثيرهم أو يدهشهم - أو يضايقهم - فيها؟ ما الذي يلفت نظرهم في مصر فيحكونه لأصدقائهم بعد عودتهم إلى بلادهم؟

الشيء الثاني هو كيف نعامل نحن - الشعب المصري - السياح الأجانب في بلدنا؟! هل نعاملهم على أنهم «صيدة» ومحفظة دولارات واسترليني وماركات ينبغي أن نفرغها إلى آخر بنس إسترليني أو سنت أمريكي أومارك ألماني أو «ين» إذا كان السائح ياباني؟ هل نحاول أن

« نستكردهم » ونغشهم و « نخمهم » باعتبار أنهم ما يعرفوش، أو أضعف الإيمان « آهم راجعين بلدهم وحايطولونا فين بعد كده »!! كيف تعاملهم الفنادق والمطاعم والكازينوهات والتاكسيات ومحلات خان الخليلي؟ هل يقول لهم موظفو الاستقبال في الفنادق إن كل غرف الفندق مشغولة حتى يبتزوا منهم الى فيه النصيب، في حين أن الفندق لم ينزل به نزيل واحد منذ ٤ شهور؟! هل ننشلهم أونسرقهم أونسيء معاملتهم؟! و (جيببت بكشيش يا چونی) أو(هاقی شلن یا مزمزیل إلهی تنطسی فی نظرك)، هل لازالت موجودة في المناطق السياحية من الشحاتين إياهم؟! هل لا زلنا نرغمهم على ركوب الجمل بالعافية في منطقة الأهرام وأبى الهول ثم نطالبهم بعشرة جنيهات، فإذا دفعوها متضررين قال لهم الجمال الفهلوى: «وفین أجرة الجمل»؟!.. هل لازال الترجمان الشهير يحكى للسياح أى كلام يختلف تماماً عن التاريخ المصرى الذى درسوه ويقول لهم: إن أخناتون هو أول من نادى بالوحدة العربية قبل «اختراع» العرب بـ ٩٦٥١ سنة و٣ شهور؟!.. والنكتة الأثرية الترجمانية الشهيرة التى تقول إن ترجمانا كان دليلاً لمجموعة من السياح في منطقة الأهرامات وفجأة عثروا على جمجمة مرمية على الرمال فسألوا الترجمان: «إيه دى يا ترجمان»؟ فقال لهم: «دى جمجمة الملك خوفو بانى الهرم الأكبر».. وبعد قليل صادفوا جمجمة أخرى لطفل صغير هذه المرة مرمية على الرمال أيضاً، فسألوا الترجمان: «ودى إيه كمان يا ترجمان»؟ فقال لهم بثقة: دى جمجمة خوفو وهو صغير».

فكرت في أن أقوم بدور السائح وأصل إلى مطار القاهرة كسائح

وأسيح فعلاً لعدة أيام أفعل فيها كما يفعل السياح، وأترك نفسي لسائقي التاكسيات والترجمات وعمال الفنادق وبائعي خان الخليلي وغيرهم، يفعلون بي ما يفعلونه مع السياح؟! لكن كيف أستطيع أن أقتنعهم بأنني سائح وشعري الأكرت، وملاحي المصرية تماماً يفضحاني؟! هل أعوج لساني وأرطن وأعمل خواجة ثم يشتني واحد فأنسى أنني خواجة وأفقع جوز أقلام وأجرجره من قفاه على القسم؟!.. ثم إن وجهي إلى حد ما معروف في مصر باعتبار أنني صحفي ربع مشهور تنشر الصحف والمجلات صورتي مع مقالاتي التي أكتبها عن رحلاتي.. صحيح أنني أغش القراء وأنشر صورة لي أيام أن كنت تلميذاً في ثانوي، لكن يرصه يعرفوني.. فماذا أفعل لكي أبدو سائحاً؟!

لا شيء.. ليس هناك أي أمل في أن أبدو سائحاً.. فما الحل؟!
وتنام الفكرة وتصحو.. وتختفي ثم تعود.. الفكرة جيدة فعلاً لكن تنفيذها هو اللي صعب.

ونامت الفكرة سنوات عديدة، حتى قفزت إلى إمكانية التنفيذ فجأة في الربيع الماضي: صديقة إنجليزية حميمة، اتصلت بي من لندن تليفونيا لتقول لي: «حسين، أنا خلاص حاتجن.. الشغل واخذني ١٦ ساعة في اليوم، حتى اكتشفت من كام يوم فقط أنني لم أحصل على أجازة واحدة ولم أسافر خارج إنجلترا ولا مرة واحدة منذ ٣ سنوات.. وخلاص قررت أنني لازم آخذ أجازة طويلة في الصيف القادم.. وأنت دعوتني كثيراً لزيارة مصر وكنت دائماً أعتذر بظروف عملي وضيق وقتي.. فإذا كانت دعوتك لي لازالت قائمة فهل ستستطيع أن تتحملني لمدة ٤ أسابيع هذا الصيف؟!..».

أجبتها وقد سطعت الفكرة في ذهني كشمس وسط النهار. فكيف لم أفكر في ذلك من قبل: «أتحملك وأتحمل أبوكي كمان.. على أن توافقي على أن أكتب عن رحلتك لمصر في مجلتي هنا».. فقالت مندهشة: «تكتب عنى؟! وهل أنا مشهورة عندكم إلى هذا الحد»؟! قلت: «لا مشهورة ولا حاجة ولا حد سمع عنك ولا يعرفك في مصر إلا أنا.. لكنك تؤدين تماماً الغرض الذى أفكر فيه منذ سنوات.. وسوف أشرح لك المسألة كلها حين تصلين إلى القاهرة»..

مارجريت توملين صديقة إنجليزية هجيمة ترجع صداقتنا إلى سنوات بعيدة.. عرفتني في أمريكا حين تجاورنا في السكن في الفترة التي عملتها أنا هناك، ثم توطدت صداقتنا أكثر حين عادت إلى إنجلترا وكنت أنا قد سبقتها إليها بنحو سنتين، فأصبحنا نلتقى كل يوم تقريباً.. فنانة تشكيلية شهيرة ورسامة رائعة. وأستاذة في كلية الفنون الجميلة.. سيدة حسنة، بيضاء، حمراء الشعر خضراء العينين، تتكلم الانجليزية الشيك الراقية جداً التي لا تخطئها الأذن بما يناسب أستاذة في الجامعة.. شديدة الملاحظة وتتمتع بعين نقادة ساخرة وكأنها ولدت لتكون صحفية طويلة اللسان والقلم، ومع ذلك فهي كتلة مرح وظرف وخفة دم، وبنت نكتة تتذوقها وتلقيها وكأنها بنت بلد من بولاق لندن.

«مارجريت توملين» تؤدي تماماً الغرض الذى أريده وتمنيته.. خواجاجة تماماً وسائحة ١٠٠٪.. سأتركها تتصرف وتتعامل كسائحة، وسيكون دورى فقط هو أن أراقب من بعيد وأسجل ما يحدث.. أسجل انطباعاتها هي عن مصر ورؤيتها لها كسائحة وأسجل شكل تعاملات ناس السياحة

معها، حتى لو نشلوها وسرقوها واستكردوها وخذعوها وضحكوا عليها، فسوف أتركها لهم وأتركهم لها تتفاهم معهم بطريقتها، وتكون مهمتى هى التسجيل فقط.
تعالى يا «مارجريت»..

وقد بدأت رحلة «مارجريت» إلى مصر وهى لا زالت في لندن.. فحين قرأت لى على التليفون البيانات التى كتبتها في استمارة طلب تأشيرة دخولها لمصر التى ستتقدم بها للقنصلية المصرية في لندن، وذكرت لى ماذا كتبت أمام خانة (الوظيفة)، مت أنا من الضحك حتى كادت مدة المكالمة أن تنتهى وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك.. فقد كتبت «مارجريت» أمام خانة الوظيفة: (آرتست ARTIST) بمعنى (فنانة تشكيلية)!! فطلبت منها أن تضع كلمة (رسامة)، أو (أستاذة في كلية الفنون الجميلة) بدلاً من حكاية (آرتست) هذه.. وشرحت لها أننا في مصر نتعامل مع صفة (آرتست) على أنها راقصة شرقية، ودرجة عاشرة كمان.. ولو كتبت في جواز سفرها أمام خانة الوظيفة كلمة (آرتست) فسوف يطالبها موظفو الجوازات في مطار القاهرة بأن ترقص لهم ١٠ بلدى حتى تثبت لهم شخصيتها.. وبما أنها لن تستطيع أن ترقص ولا حتى ٣ بلدى، فمن الأفضل أن تضع كلمة (رسامة) فقط! وحصل..

في يوم وصول «مارجريت» إلى مصر انتظرتها في مطار القاهرة من الداخل في منطقة وصول الركاب إلى صالة المطار.. لكنها ضاعت منى في زحمة وصول ٤ طائرات دفعة واحدة من أماكن مختلفة من العالم، ولشركات طيران مختلفة، وانشغالى بمراقبة مجموعة كبيرة لا تقل عن ٥٠

أو ٦٠ من الفتيات المنقبات، كلهن يرتدين لوناً واحداً وكأنه زى رسمى أو (يونيفورم).. حتى أن تعليقاً مرحاً من واحد كان يقف إلى جوارى أطلق عليهن: فريق مصر الدولى للمنقبات.. وعلق واحد آخر مندهشاً: هل سوف يكشفن عن وجوههن أمام ضابط الجوازات أم لا؟! وهل تقبل إدارة الجوازات إصدار جواز سفر وفيه صورة منقبة؟! .

ولحقت بمارجريت وهى واقفة فى الطابور الطويل أمام مكتب الجوازات قبل أن تصل إليها يد أمين الشرطة الذى كان ينظم الطوابير بأن يشخط فى السياح الأجانب باللغة العربية: «خش جوا الصف.. خش جوا الصف» ويزغد السياح الرجال فى كتفهم فيضعهم (جوا الصف)، ويزغد السائحات البنات والستات (بحنة) ومش مهم بعد كده يخشوا جوا الصف أم لا.. ولحقت «مارجريت» قبل أن تطولها يد أمين الشرطة الحين فتقلب المسألة بنكد من أول لحظة لها فى مصر لأننى أعرف طبعها النارى العنيف، ومرة كنا معاً فى أحد شوارع نيويورك وقبل أن أتدخل أنا ففقت هى سكراناً إعترض طريقها، ففقت (بوكسا) جابه الأرض فافترش الرصيف بالعرض. ولعله لا زال راقداً هناك حتى الآن.

ولأنه كان فى صالة الوصول فى مطار القاهرة ركاب ٤ طائرات فى وقت واحد، فإننا فى هذه الزحمة قد استطعنا الإفلات من رذالة الشياطين الذين يفرضون أنفسهم على المسافرين، حتى المصريين منهم - وقد حدث ذلك معى مراراً - فالشياطين يتركك حتى تنزل شنطتك بنفسك من فوق الـ (سير)، ثم ينقض عليك ليختطفها من يدك بدعوى مساعدتك، ثم يضعها على (الترولى)، الذى كنت قد أحضرته أنت بنفسك، وينطلق بها..

وتضطر مرغماً أن تجرى وراءه وإلا تاه منك في الزحمة.. وبعد ١٠ خطوات بالعدد تجد نفسك قد وصلت إلى المنطقة الجمركية فيسلمك الشيال الترولى، ويعد يده مفتوحة إليك يتعجلك البقشيش لأن ضحايا آخرين غيرك لسه في داخل الصالة ينتظرون عودته لينقض عليهم ويفعل بهم ما فعل بك.. ومهما أعطيته من بقشيش حتى لو كتبت له شيكاً بألف جنيه فسوف يدير لك الأسطوانة الشهيرة: «يابيه ده إحنا من صباحية ربنا ما استفتحناش، وحضرتك أول زبون لى النهارده وكلك نظر و..» إلى آخر هذه الأسطوانة السمجة التى تسمعها من كل شيال بنفس الطريقة ونفس الكلام.. ثم تسمعها مرة أخرى بعد دقائق من سائق التاكسى الذى سوف يأخذك من المطار إلى حيث تريد.. وغالباً - لو كنت سائحاً - إلى حيث يريد هو.. فقد تطلب منه أن يذهب بك إلى فندق (النيل هيلتون) - مثلاً - فيقول لك إنه قد أوصل اليوم ٨ زبائن إلى (النيل هيلتون) وجميعهم لم يجدوا غرفاً فى الفندق، وعاد فذهب بهم مرة أخرى إلى فندق (النيل حنفى) فى الناصرية أو السيدة زينب الذى به أماكن خالية، لذا فهو - سائق التاكسى - قد اختصر الطريق الآن.. وتجد نفسك وقد وصلت فعلاً على باب (النيل حنفى)، وليس لك خيار وأنت لا تعرف البلد... ثم تكتشف أن (النيل حنفى) هو فندق درجة ١٥ ليس لدى وزارة السياحة ولا حتى وزارة الداخلية أى علم به، لكنك تكون قد «اندبست» والى كان كان.. لأن سائق التاكسى النشيط، قد قبض العمولة من (النيل حنفى) عن توريدك إليه ثم اختفى وتركك تواجه مصيرك.

ورغم أنه - كما ذكرت - ٤ طائرات قد وصلت إلى مطار القاهرة في وقت واحد، ففي الحقيقة أن رجال الجمرک في المطار كانوا سريعين وشهلين وممرنين، ومررت كل الأمور بسهولة ويسر، ولم يحدث تكديس ولا تراحم ولا فوضى في منطقة الجمرک.. حتى أن «مارجريت» أبدت دهشتها للانضباط الذي رآته ولم تكن تتوقعه.

كنا - الأسرة الکرمة وأنا - قد قررنا أن نقيم «مارجريت» خلال فترة زيارتها لمصر في بيتي، لكي تكون تحت أعيننا طول الوقت ونرى انطباعاتها ٢٤ ساعة في اليوم من ناحية، وأوفر على نفسي مليون جنيه كنت سأدفعها لو أنزلتها في فندق يليق بقدرها، وهو لن يقل طبعاً عن فندق ٥ نجوم..، ولم أكن مهياً - لا نفسيًا ولا «جيبياً»، ولا حتى «صحفياً» - لأن أغرم ٦ آلاف جنيه لو أني استضفتها في فندق.

وتقرر - الأسرة هي التي قررت - أن تكون «ثناء» و «حياة» هما اللتان تنوبان عن الأسرة في القيام بمهمة المضيفات أو (وصيفات الشرف) المرافقتين لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. لأن واحدة منهما مدرسة لغة إنجليزية، والثانية تستطيع أن تعد من واحد لعشرة بالإنجليزية دون أن تخطئ إلا في رقمين أو ثلاثة.

وهكذا، فحين خرجت «مارجريت» من باب مطار القاهرة وجدت نفسها تستقبل كأمريرة والطفلتان «حنان» و «هبة» بفساتينهما البيضاء الصغيرة تقدمان إليها باقة ورد فاخرة.. فانحنيت لتتلقى باقة الورد من الطفلتين وتقبلهما. وبمجرد أن اعتدلت في وقفتهما وجدت نفسها في حضن

صديقتى الفنانة الكبيرة «سعاد حسين» التى كانت قد تعرفت عليها فى لندن منذ عدة سنوات، وأصرت «سعاد» على أن تكون فى استقبال «مارجريت» فى مطار القاهرة كما استقبلتها «مارجريت» فى مطار «هيثرو»... واستعرضت مارجريت (طابور المستقبلين) وأنا أقدمهم إليها، والبنات يعانقنها ويقبلنها والشبان يكتفون -متضررين- بمصافحتها باليد: سعاد- هناء- حياة- ثناء- عزة- أحمد فؤاد- سيد محبى الدين- عادل.. وفلاشات التصوير فى كاميرا سيد تلاحقها وتصورها كلما التفتت يميناً أو يساراً.. فالتفتت إلىّ وهى ترفع حاجب الكبرياء الأيسر لتقول لى: «وبتقوللى إن ماحدش يعرفنى فى مصر إلا أنت»!!..

وفى السيارة فى الطريق من المطار إلى البيت بدت «مارجريت» وكأنها جالسة على «رولان بلى».. فقد أصرت «سعاد» على أن تأخذ «مارجريت» فى جولة ليلية فى القاهرة قبل أن تذهب إلى البيت، لكى ترى القاهرة وأضواء القاهرة فى الليل.. فسعاد تعتقد أن القاهرة فى الليل أجمل منها فى النهار، وأنا أرى أن القاهرة هى أجمل مدينة فى العالم ليلاً ونهاراً.. لكن رأى «سعاد» هو الذى انتصر الليلة لأنها هى التى كانت تقود السيارة.. فرأت «مارجريت» الشوارع الواسعة النظيفة الخالية من المارة - قرب الثانية صباحاً - وانهرت من شكل الطرق العلوية المتعددة، وقالت إنها لا تقل عن مثيلاتها فى أمريكا التى عاشت فيها ٧ سنوات من عمرها.. وصارت رقبتها تدور وراء كل مسجد (تكتشفه) وتتعرف عليه من منذته العالية المضاءة، وكل ١٠ خطوات مسجد وبين كل مسجد ومسجد مسجد: «وذلك مسجد آخر.. وذلك مسجد آخر..

وذلك مسجد آخر.. و..» والتفتت إلى لتقول: «يقال إن القاهرة هي مدينة الألف مسجد، لكنني أتصور الآن أنهم أكثر كثيراً من ذلك.. متى كانت آخر مرة عدتهم فيها!!»

وحين وصلنا في نهاية الجولة إلى البيت، وأطلت على القاهرة النائمة الصاحية المظلمة المضئية من شرفة الطابق الثاني عشر في ميدان رمسيس، ودارت بعينها ٣٦٠ درجة تتفرج على القاهرة كلها في هذا الجو من هذا الارتفاع، قالت بصوت خافت حالم: «أتصور أنني - من فرط سعادتي واستشارتي - لن أستطيع أن أنام الليلة».

وقبل أن تنتهي من جملتها كانت قد طبّت نائمة، وحملناها حملاً إلى الفراش!!

الفصل الثانى

مارجريت.. فى قسم البوليس !

وأنا فى القاهرة أستيقظ عادة قبل العاشرة صباحاً.. ورغم أننا وصلنا إلى البيت من المطار فى الثالثة بعد منتصف الليل. إلا أننا إستيقظنا قبل السابعة صباحاً على «مارجريت» وهى تهزنا بعنف: «استيقظا يا كسالى.. هل ستنامان طول النهار؟»..

كانت قد اكتشفت مكان المطبخ فى الشقة الواسعة الكبيرة، وأعدت صينية إفطار فاخرة مما وجدته فى المطبخ.. الأوربيون عموماً يعتبرون الإفطار وجبة أساسية، لأنهم يعيشون عليها طول اليوم حتى المساء حين يعودون إلى بيوتهم من مكاتبتهم.. الغداء ممكن ساندوتش سريع أو حتى لا شىء.. لكن الإفطار والعشاء هما الوجبتان الأساسيتان..

وجلست «مارجريت» على حافة الفراش فى مواجهة الفراندة المفتوحة التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، لكى تشهد القاهرة أمامها على امتداد البصر من وسط المدينة حتى الطريق الصحراوى عند

أهرامات الجيزة، مروراً بالقاهرة القديمة: شبرا، وجيزة بدران والسبتية، وبولاق، ثم مبنى التلفزيون، ونهر النيل وبرج الجزيرة، وعمارات الزمالك العالية، ثم النيل مرة أخرى وامبابة والعجوزة والمهندسين وبولاق الدكرور حتى بداية الصحراء...، وهي مبهورة محتبة الأنفاس متسعة العينين - الخضراوين الجميلتين - وتصف لنا وهي سعيدة جداً كل شيء تراه أمامها ابتداء من ٣ أطفال يلعبون على رصيف نفق شبرا، إلى عربة زباله يجرها حمار صغير جداً إلى واحدة ست ماشية في الشارع لابسة جلابية سوداء وعلى رأسها قبعة خوص كبيرة لابساها بالمقلوب.. (تقصد مشنة)!!

تقول لى بعد لحظات: «تعرف.. المدن الأخرى التي زرتها في أنحاء العالم، هي مجرد مدن.. مبانى ومساكن يعيش فيها الناس، وخدمات ومواصلات ومرافق.. لكن القاهرة شيء آخر مختلف، تشعر باختلافه للوهلة الأولى ومن أول نصف ساعة لك فيها.. القاهرة كائن حي.. مدينة لها نبض.. هكذا أحسست بها أمس ليلاً وهكذا أحس بها الآن..»

ونزلنا لكى تبدأ «مارجريت» أول خطواتها على أرض مصر... وبعد ١٠ خطوات من البيت وجدت نفسى مضطراً أن آخذها إلى قسم البوليس!! لأ .. هي لم تفعل شيئاً بعد.. سوف تفعل.. لكننى آخذها إلى قسم البوليس كتعليمات مكتب الجوازات في مطار القاهرة: ينبغى أن يكون مكان السائح معلوماً لأجهزة الأمن في الدولة. فإذا كان سوف ينزل في فندق أو في شقة مفروشة، فسوف يتولى الفندق أو صاحب الشقة المفروشة هذه المسألة ويبلغ جهاز الأمن المختص بأسماء النزلاء عنده

وأرقام جوازات سفرهم.. أما إذا نزل السائح ضيفاً على أحد - كما في حالة «مارجريت» - فإن على هذا الـ «أحد» أن يسجل لدى قسم الشرطة التابع له أن السائح فلان الفلاني أو السائحة فلانة الفلانية التي بيانات جواز سفرها كذا، سيقم عنده لمدة كذا.

ورغم أن ضابط مباحث قسم الأزيكية الشاب - ضابط المباحث هو الشاب طبعاً وليس قسم الأزيكية - استقبلنا جيداً وباحترام وأدب شديد، إلا أنه قال لنا إنه لا بد «أيضاً» من تسجيل «مارجريت» في إدارة الجوازات في مجمع التحرير!! لماذا هذه الازدواجية وتسجيل السائح مرتين في مكانين مختلفين؟! لا أحد يعرف، لكن علينا أن نطيع وننفذ.

وفي طريقنا، سيراً على الأقدام، إلى مجمع التحرير عبر وسط البلد، مررنا في شارع عرابي.. وعند مطعم التابعي الشهير أقول لها إنه أشهر مطعم إفطار في مصر، فلا يلت نظرهما لأنها لم تر إلا واجهة المطعم من الخارج.. لكن بعده بخطوات تتوقف أمام محل طعمجي صغير جداً يقلى الطعمية في الشارع على الرصيف أمام الناس.. ووقفت «مارجريت» تتفرج مندهشة على سرعة العامل وهو يكبش بأطراف أصابعه قطعة صغيرة من عجينة الطعمية الخضراء ويلقيها في إناء القلية أمامه فتطش في الزيت المغلي وتفور من حولها فقاعات صغيرة وتبدأ الطعمية (تحمّر) على الفور.. و «مارجريت» تتابع حركات يديه السريعتين وأقراص الطعمية تتكاثر على سطح الزيت بسرعة.. وتخرق رائحة الطعمية الساخنة الطازجة الشهيرة نفاشيشها الإنجليزية فتتوقف عن السير، وتقول مبهورة وهي تبتلع ريقها: He is making cakes.. ده بيعمل كيك!!

فشرحت لها وأنا لا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك أن الذى يعمله ليس (كيك) وإنما هو طعمية.. وشرحت لها مكونات الطعمية التى لم تكن قد رأتها أو سمعت عنها فى حياتها من قبل، فقالت: «أذوق» فسألتها: «كم ساندوتشا تريدین؟» قالت: «لا أريدها فى ساندوتشات.. أريدها هكذا فقط لكى أعرف طعمها الحقيقى دون أى إضافات أخرى قد تغير طعمها» سألتها: «تاخذى كام واحدة» قالت: «اثنين كفاية».

فاشتریت ٤ طعمیات - لى ولها - وضعها لى الطعمجى فى قرطاس من ورق الجرائد.. فاندھشت «مارجريت» جدًّا من شكل القرطاس وكونه من ورق الجرائد.. لأنهم فى أوروبا كلها يرمون الصحف فى الزباله بمجرد أن ينتھوا من قراءتها.. و «مارجريت» الآن عرفت أن للصحف المصرية فوائد أخرى.. كنت أريد أن أستغل سذاجتها وأقول لها إن هذه صحف خاصة تطبع خصيصًا لكى نلف فيها الطعمية.. لكننى خفت لتفتكرنى كداب!

المهم، فتحت لها القرطاس فمدت يدها وبأطراف أصابعها الإنجليزية الرشيقه المطلية بالمانيكير، التقطت طعميية قطمت منها قطعة صغيرة بحذر لكى تستطعمها، ثم وضعت بقية الطعميية كلها فى فمها مرة واحدة وشهقت من التلذذ والانبساط.. وبينما فمها الصغير لازال محتشدا بالطعميية الأولى مدت أصابعها بسرعة فى القرطاس والتقطت الطعميية الثانية وهى تنظر بكل وجهها داخل القرطاس لترى كم واحدة بقيت.. ووضعت الطعميية الثانية فى فمها فى قطعة واحدة وهى تسألنى وكأنها ترجونى ألا أفعل: «إنت مش بتاكل ليه؟!» فقلت لها وأنا ميت من

الضحك في داخلي: «مش جعان أوى» فقالت على الفور وهى تمد يدها لتأخذ القرطاس كله من يدي: «OK».. وفي ربع دقيقة كانت الطعميتان الباقيتان قد تلاشتا.. وكنا قد وصلنا فقط إلى آخر ناصية الرصيف، فتوقفت «مارجريت» ونظرت وراءها لكي ترى كم بعدنا عن محل الطعمجى وهى تسألنى باهتمام: «هل هذا هو الرستوران الوحيد الذى يصنع هذا الكيك في القاهرة، أم ممكن أن نجدها في أماكن أخرى، قريبة؟»!! فقلت لها إنه ليس في مصر أكثر من «رستورانات» الطعمية لأنها الغذاء الشعبى الأول لكل الناس في مصر.. فاطمأنت وهذأت.

ومشينا في شارع سليمان باشا وهى مبهورة بكل شيء وتتفرج على كل شيء وتتوقف أمام كل شيء، وبين لحظة وأخرى تقول لى بسعادة بالغة: «إذن فهذه هى القاهرة، أخيراً، التى طالما حلمت من وأنا طفلة بأن أراها».. كانت الدنيا حر وفي يونيو والطعمية عملت عماليلها معاها، فقالت لى إنها عطشانة، وتريد أن تشرب شيئاً.. فدعوها إلى عصير فراولة، فاتهبنا على طعم الفراولة التى تتذوقها لأول مرة عصيراً.. أكلت الفراولة كثيراً كفاكهة، لكنها لم تتصورها أبداً عصيراً.

وظلت هكذا كل ٥ دقائق تهبل على شيء وتنبر لشيء، حتى وصلنا إلى ميدان سليمان باشا، ورأت الصحف والكتب التى تفتersh الأرض وتحتل مساحة واسعة جداً من رصيف الميدان، ورأت رجلاً بجلابية زرقاء يجلس (على قرايفسه) بجوار الكتب واضعاً يده على خده.. فتوقفت مندهشة جداً، وسألتنى: «لماذا كل هذه الكتب مرمية في الشارع هكذا؟ هل هذا الرجل يعترض أو يحتج على شيء ما، ويعلن احتجاجه بهذه

الطريقة؟! هل هو Homeless ليس له سكن ويطالب الحكومة بمسكن لكي يضع فيه كل هذه الكتب؟! شكله لا يدل أبداً على أنه قرأ كتاباً واحداً من هذه الكتب.. أنت صحفي فلماذا لا تسأله؟». لم أشأ أن أذكر لها أنه أهم ناشر في مصر الآن حتى لا تظن أن كل واحد قاعد (على قرايفيه) في الشارع وحاطط إيده على خده، ناشراً.

ونحن في ميدان سليمان باشا سألتني: «إنني لم أر نهر النيل بعد.. هل نحن نسير في عكس اتجاهه؟».. فأخذتها إلى مبنى جامعة الدول العربية لنزور صديقي «السيد الطاهري» مدير الإعلام بالجامعة العربية ورفيق أولى خطواتي في الصحافة، فقد بدأنا معاً في يوم واحد في مجلة واحدة هي مجلة (التحرير) الأخت الصغرى للجريدة الجمهورية.. ولم نبق كثيراً عند «السيد الطاهري» فقد كان الغرض من زيارته - في الحقيقة - هو أن ترى «مارجریت» النيل من نافذة مكتبه. «مارجریت» لأنها فنانة فهي شديدة الحساسية سريعة التأثر والانفعال.. بعد أن تأملت النيل طويلاً وملأت عينيهما منه قالت في صوت خافت: «لقد عشت في أستراليا ١١ سنة، وفي أمريكا ٧ سنوات وفي إيطاليا سنتين، وفي سويسرا سنة، وفي إنجلترا بقية عمري.. ورأيت أنهارها جميعاً لأنني أحب الأنهار بل مغرمة بها.. لكنني لم أر نهرًا أجمل من نهركم.. لقد رأيته أمس ليلاً في طريقنا من المطار إلى البيت حين أصرت سعاد على أن تريني كباري القاهرة.. وانبهرت له ليلاً، وظننت أن الليل هو الذي يضيف عليه هذا السحر.. لكنه بالنهار لا يقل جمالاً عنه في الليل.. أريد أن أراه أيضاً عند الغروب».. فقلت أطمئنها: «سوف تريه في أي وقت تريدين، فهو في

هذا المكان ٢٤ ساعة في اليوم».

كنا نقرب من مبنى مجمع التحرير حين انطلقت «مارجريت» فجأة ترمح كالغزال لكي تأخذ في حضنها فتاة جميلة محدقة صغيرة الحجم أنيقة، وجاءت بها في يدها لكي تقدمها لي: «هذه الآنسة الجميلة هي ثناء، قريبتك، هل تذكرها؟!.. كنا قد تركنا «ثناء» في البيت عند نزولنا صباحاً لكي تجهز الغداء ثم تلتقي بنا في ميدان التحرير عند الظهر.. وبما أن «مارجريت» لم تكن تعرف ميدان التحرير بعد، فقد دهشت جداً لرؤية «ثناء» وظننت أننا نلتقي بها صدفة! بعد ذلك بأيام كانت «مارجريت» تعرف الشوارع الرئيسية في وسط القاهرة بالاسم والموقع.

وفي مجمع التحرير جلسنا في مكتب الصحافة التابع لهيئة الاستعلامات بينما أخذ الساعي جواز سفر «مارجريت» ليسجله وعاد به مختوماً بعد ٣ دقائق بالضبط.. ولم تستطع «مارجريت» - وحتى «ثناء» - أن تخفيا دهشتها من هذه السرعة، فقلت لها أغيظها: «الصحافة في مصر هي السلطة الرابعة كما تعرفين» فقالت في غضب: «لا أعرف ولا أريد أن أعرف.. لقد وعدتني بأن أمر بكل الظروف التي تمر بها السائحة العادية التي ليس لها صديق صحفي زى حضرتك، فلماذا تغير كلامك هكذا من أول يوم!»

«ثناء» هي المندوبة فوق العادة التي اختارتها الأسرة لمرافقة «مارجريت» خلال زيارتها لمصر من ناحية لأن «ثناء» مدرسة لغة إنجليزية وتستطيع أن تتفاهم مع «مارجريت»، ومن ناحية أخرى لأن «ثناء» فتاة مريحة كلها ظرف وخفة دم وحبوبة وعشرية وتحب كل

الناس، وكل الناس تحبها بسهولة جدًا. وثالثا لأن «ثناء» بنت شيك و (لبيسة) ويليق عليها كل شيء حتى لو لبست جزمة كاوتش من غير رباط.. ورابعا لأنها أكثر بنات الأسرة (الماضى) ولا تقف أمامها مشكلة، فهي تحل أى مشكلة تواجهها إما بالابتسامه الجميلة. وبالدوق والأدب والرفقه وحسن التعامل، والإقبالتكشيرة - الجميلة أيضا - وبالصوت العالى المسرع الذى يخرق طبله الأذن فـ «تساب لها بلاد»، وتتحل المشكلة.

وقد وقعت «مارجريت» فى حب «ثناء» ووقعت «ثناء» فى حب «مارجريت» من أول لحظة، حتى أن «مارجريت» دعت «ثناء» بإصرار وإلحاح أن تذهب إلى لندن وتنزل ضيفه.. عندى أنا!

وتولت «ثناء» القيادة.. فهي أكثر منى معرفة بشوارع القاهرة ومحلات القاهرة وتعرف المستخبى فى دكاكين القاهرة.. والقاهرة - أو مصر - تعتبر الآن كنزاً للسائح الأجنبى بعد ارتفاع أسعار تغير العملة ارتفاعاً كبيراً.. فالجنيه الإسترلينى الذى فى جيب «مارجريت» يساوى خمسة جنيهات ونصف من الجنيهات المصرية التى فى جيبى أنا.. لذا اندهشت «مارجريت» جداً للأسعار المتواضعة للغاية لكل ما رآته، لأنها كانت تحسب كل شيء فى ذهنها الإلكترونى بحساب الإسترلينى: «هذا الشيء بـ ٥٥ جنيه مصرى، إذن هو بعشرة جنيهات إسترلينية.. يا بلاش.. لأن سعره فى لندن لا يقل عن ٦٠ جنيه إسترلينى» لذا فما أن أخذتنا «ثناء» إلى محلات وسط البلد فى شوارع سليمان باشا وقصر النيل وشواربى، حتى إنقطعت صلتها بى تماماً ولم يعد لوجودى معها أى لزوم.. حتى اننى

فكرت في أن أذهب لأقضى عدة أيام على الشاطئ في الإسكندرية ثم أعود لأخذ «مارجريت» و«ثناء» من شارع شواربي، إذا كانتا قد انتهيتا بعد من شراء ما تريد «مارجريت».. كان معها كشف صغير جداً فيه ٥ أساء فقط - منهم قطتها!! - تريد أن تشتري لهم هدايا من مصر، وحددت لنفسها ميزانية إسترلينية لا تتجاوزها.. لكنها وجدت أنها بنفس الميزانية الإسترلينية تستطيع أن تشتري هدايا لعشرة أشخاص بدلاً من خمسة فقط، فاشترت هدايا لسكرتيرتها ولكلبها وكلبة الجيران، وبرضه فاضت فلوس، فقررت أن تشتري هدية لزوجها أيضاً!!.. وكانت كل الهدايا التي اهتمت «مارجريت» بأن تشتريها لها الطابع المصري أو الفرعوني المميز.

نظرت «مارجريت» فجأة في ساعتها ثم سألتني: «أنتم في مصر تتناولون وجبة الغداء أيضاً، أليس كذلك؟!». واقترحت «ثناء» أن نعود إلى البيت بمترو الأنفاق لكي تری «مارجريت» الـ (أندرجراوند) المصري.. «مارجريت» زبونة دائمة للأندرجراوند اللندني وتقول إنها تقضى فيه وقتاً أكثر مما تقضيه في أى مكان آخر.. فبين بيتها ومرسمها ساعة ونصف في الأندرجراوند، وبين بيتها وكلية الفنون الجميلة ساعة بالضبط، وبين بيتها وبيتى ساعة وربع، وبين مكتبها ومكتبى نصف ساعة.. وهى تحصل على أجازة أسبوعية من شغلها لكنها لا تحصل على أية أجازة من الأندرجراوند الذى تتعامل معه كل يوم.. لذا فلم تبد عليها السعادة كثيراً حين اقترحت «ثناء» أن نركب الأندرجراوند إلى البيت.. لكن «ثناء» طمأنتها بأن عدد محطات الأندرجراوند بين البيت عندنا في ميدان

رمسيس وبين أبعد مكان في وسط البلد هي خمس محطات فقط، والمشوار الذي سنركبه من أوله لآخره يستغرق أقل من ٥ دقائق.. فرحبت «مارجريت» على الفور وركبنا فعلاً الأندرجراوند لكى تفاجأ به.. أعجبها جداً شكل تصميم المحطات من الداخل، وكل محطة لها طابع خاص مميز بحيث تستطيع أن تعرف المحطة من شكلها وديكورها الداخلي دون أن تحتاج إلى أن تقرأ اسمها.. وقالت «مارجريت» لثناء - لأنها تعرف أنني أعرف ذلك - أن ٩٥٪ من محطات الأندرجراوند في لندن (قرعاء) وكلها زى بعضها من الداخل وبدون أى ديكور أو تصميم داخلي على الإطلاق. بحيث أنك لا تعرف أين أنت إلا إذا قرأت اسم المحطة المكتوب بداخلها.. وأضافت «مارجريت» بأنه لعل السبب في ذلك سبب اقتصادي، فمترو الأنفاق في لندن عدد محطاته ٢٨٤ محطة بينما عندكم في مصر خمس محطات فقط.. لكن «ثناء» أجابته بأنها شعب يحب الدندشة ويهتم كثيراً بالمظهر الجيد والشكل الخارجى.. لذا فعندما يصبح عدد محطات الأندرجراوند عندنا ٢٨٤ محطة مثل لندن، فبرضه سوف تجدين أن لكل محطة شكلها الخاص وديكورها الخاص.. ولما يبقوا ٢٨٤ محطة ابقى تعالى شوفيهم بنفسك علشان تتأكدى!!

يدينا ويديكى طولة العمر يا «ثناء»!

ونزلنا من الأندرجراوند في محطة (حسنى مبارك) في ميدان رمسيس التي تواجه بيتى مباشرة على الرصيف الآخر.. لكن قبل أن نعبث الشارع توقفت «مارجريت» فجأة وتلفتت حولها يمينا ويساراً وهى تشمشم بأنفها الدقيق في كل اتجاه ككلب بوليسى مدرب، ثم قالت: «الرائحة تجي من

هذا المكان» وأشارت بيدها إلى باب محل على الرصيف المواجه للعمارة وقالت: «هنا رستوران آخر يعمل الكيك الذى أكلت منه فى الصباح.. ما رأيك فى أن نتغدى من هذا الكيك الآن.. إنه سوف يعجب ثناء جداً.» و «ثناء» مندهشة لأنها لا تعرف حكاية الـ (كيك) هذه.. لكننى قلت لمارجريت: «إطمئنى من ناحية ثناء فهى قد فطمت على هذا الكيك وتأكله ٧ مرات فى الأسبوع... ثانياً هو ليس كيك لكن اسمه طعمية.. ثالثاً أن هناء وحياة وثناء قد قضين فى المطبخ أمس ٤ ساعات لكى يطبخن لحضرتك الغداء الذى سوف تتناولينه الآن ولا يصح أن تكسرى بخاطرهن وتتركى الأكل المصرى الشهى الذى ينتظرك فى البيت لكى تملئى بطنك طعمية، ثم....» وأشارت لها إلى باب العمارة وإلى باب مطعم الفول والطعمية وكيف أنها فى مقابل بعضهما تماماً بحيث أنها حين تهنفها نفسها إلى الطعمية سوف تكون فى قمها بعد ٣ دقائق بالضبط.

واطمأنت «مارجريت» وعبرنا الشارع إلى الرصيف الذى عليه بيتى، وقبل أن تدخل من باب العمارة ألقت نظرة أخيرة على مطعم الفول والطعمية وكأنها تقيس المسافة بينه وبين باب العمارة. الخواجات دول فى مخهم حاجة مش صح.. طعمية !!

وبالفعل كان الغداء فاخراً.. كانت صديقتى مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى» - وهى طباخة أكثر من رائعة - قد قادت معركة مطبخية بالأمس، وحشرت فى المطبخ معها «ثناء» و «حياة» لتساعدانها فى عمل ٤ أصناف مصرية تماماً: كشك بالفراخ - بامية - أرز معمر - والحلو (أم على).. وأعدت «ثناء» سفرة رائعة حتى أن «مارجريت» لم تستطع أن

تخفى دهشتها، وقالت: «وتقولون إن ظروف مصر الاقتصادية صعبة؟! كل هذا الأكل من أجل ٣ أفراد فقط؟ إنه يكفي ٢٠ شخصاً ويفيض.. أنتم مجانين قطعاً.. ولعلنى الآن قد عرفت أسباب أزمة مصر الاقتصادية!!»

الانجليز يأكلون أكلاً بسيطاً وسريعاً طول الأسبوع، ولا يأكلون أكلاً معقولاً ووجبات كاملة مطبوخة غير في الـ (ويك إند) أو نهاية الأسبوع، مثل يوم الجمعة عندنا.. وفي كل أيام الأسبوع يعدون الوجبات على القدر بالضبط وليس أكثر من الذي سيؤكل فعلاً.. إذا كنت ستأكل بيضتين أو قطعتين من (الهامبورجر) فإنك لن تقلى ٦ بيضات ولن تسخن ٨ قطع (هامبورجر) تأكل منها ثم تضع الباقي في الثلاجة.. ومطابخهم ليس فيها مكان لتحفظ فيه (حلل) الأكل لكي يأكلوا منه في اليوم الثاني واليوم الثالث.. وحين تطبخ الزوجة الانجليزية يوم السبت أو الأحد لزوجها وأولادها فحين ينتهى الغداء يكون كل الأكل المطبوخ قد انتهى، وتغسل أواني الطبخ وتعود إلى مكانها.. الثلاجة يوضع فيها الخبز والعصائر والبيض والزبد واللبن والجبنات وما إلى ذلك.. لكن أكل مطبوخ قطعاً لا ..

«أصابع السيدة هذه رائعة.. نحن نعرفها في إنجلترا كنوع من النباتات لكننا لا نزرعها ولا نطبخها، بل ولا نعرف أصلاً أنها تطبخ.. (أصابع السيدة هي البامية باللغة الانجليزية Lady's Fingers). الأرز أول مرة في حياتي آكله بهذه الطريقة، إنه يصلح وجبة كاملة وحده.. رائع.. قلت لى إن اسمه أرز معمر.. هل له علاقة برئيس ليبيا، أو هل هو أكلة ليبية

أصلاً؟!.. هذا الصنف اسمه سهل النطق: كشك.. لكن طعمه غير مستساغ في فمى.. إنه يشبه الـ (بودنج) أو الـ (كاسترد) لكنه حادق وليس حلوا، لذا أستغربه كثيراً.. أما (مامة على) هذه فهي رائعة حقيقة لكننى خلاص امتلأت ولم يعد فى بطنى مكان لها.. لماذا تضعون كل شىء على المائدة مرة واحدة وكأنكم تريدون أن تتخلصوا من ضيوفكم فى أسرع وقت ممكن، يأكلوا ويمشوا.. هل يضايقكم لو احتفظت بنصيبى من (مامة على) فى الثلاجة لكى أتناوله مع الشاى فى المساء؟.. ثم وضعت نصف الصينية فى طبقها ووضعت فى الثلاجة بنفسها.. ذكرتنى بشىء لا زلت حتى الآن أضحك له بعد ١٥ سنة قضيتها فى أمريكا وإنجلترا: الثلاجة الإنجليزية سواء فى البيت أو فى مكان العمل، تبدو وكأنها مقسمة إلى خانات.. إذا اشترى أحد أفراد البيت شوكلاتاية مثلاً ولن يأكلها كلها مرة واحدة فإنه يضع بقيتها فى الثلاجة ويلصق عليها ورقة صغيرة مكتوب عليها اسمه.. إذا أكل نصيبه من الفاكهة وبقي إصبع موز أو برتقالة أو تفاحة وضعها فى الثلاجة ليأكلها فيما بعد، ولصق عليها ورقة صغيرة عليها اسمه.. إذا اشترى الابن أو البنت قطعة جبن لم يأكلها كلها وبقيت منها قطعة فى حجم طابع البريد: لصق عليها ورقة عليها اسمه.. علبه كوكاكولا، زجاجة لبن، قطعة زبد، علبه عصير.. إلخ.. وتفتح الثلاجة الانجليزية - فى البيت أو فى مكان العمل - فتجدها مليئة بهذه الأوراق الصغيرة التى تحمل أسماء أصحابها.. ويأويله ويأسواد ليله من تحدّثه نفسه بالاعتداء على «ممتلكات الغير»!.. حكى لى صديق انجليزى شاب فى أوائل عشريناته أن أخته التوأم - ١٦ سنة - فقعتاه مرة علقه

هائلة لأنه نجاسر واستولى على بقية شوكولاتية صغيرة تخص إحدى التوأمين.. وأيد أبوه وأمه موقف البنيتين وقالوا له ما معناه: إنت اللي جبتة لنفسك.. تستاهل»..

لذا لم أندشش حين فتحت الثلاجة عصرًا فوجدت ورقة صغيرة عليها إسم «مارجريت» على طبق (أم على) بتاعها!!

بعد الغداء قلت لمارجريت: «سأدخل الآن لأنام ساعتين أو ثلاثة، وأنت خذي راحتك: إذا أردت أن تنامي أو تشاهدى التلفزيون أو تدرشى مع ثناء.. البيت بيتك فافعلى ماتشائين».. قالت بحددة: «تنام الآن في عز النهار؟! وماذا سوف تفعل بالليل إذن؟! إن اليوم ٢٤ ساعة فقط يا مستر قدرى وأنا لم أجبى إلى مصر لكى أنام فترة العصر.. جهز نفسك للنزول حالاً.. تعالى معى يائئنا.. سنكون جاهزين للنزول بعد ١٠ دقائق بالضبط»!!

بعد ١٠ دقائق فعلاً كنا نركب الأندرجراوند - الذى أصبح هواية مارجريت المفضلة طوال زيارتها لمصر، حتى أنها بعد أسبوع واحد كانت تستطيع أن تذهب إلى وسط البلد وحدها لتتسكع في المحلات وتتفرج على الناس على راحتها - وبعد خمس دقائق أخرى كنا على باب المتحف المصرى أو دار الآثار المصرية في ميدان التحرير.. وسلمنا الأستاذ «محمد حسن» مدير المتحف إلى المرشدة الشابة الجميلة «أميمة» التى أخذتنا في جولة طويلة في المتحف. شرحت لنا ومارجريت شرحًا وافياً لكل ما رأيناه، وهى بين حين وآخر تسألنى إن كانت إنجليزيتها واضحة بالنسبة لمارجريت.. لكننى في الحقيقة كنت خجلاً جداً من نفسى، وهمست

لثناء بأننى زرت المتحف المصرى مرتين فقط طول حياتى، مرة وأنا تلميذ فى ابتدائى فى رحلة مع المدرسة، والمرة الثانية كانت منذ ٢٠ سنة حين صحبت زميلة صحفية هندية لزيارة المتحف.. رغم أنه فى طريقي من بيتى إلى مكتبى مرتين كل يوم على الأقل.. فهمست لى «ثناء»: «حضرتك على الأقل زرته مرتين من قبل.. أنا عمرى الآن ٢٦ سنة ولم أزره فى حياتى إلا الآن، بل - فى الحقيقة - لم أفكر أبداً من قبل فى زيارته.. بدمتك دى مش حاجة تكشف إن الأجانب ييجوا من بلادهم من آخر الدنيا علشان يزوروا متاحفنا، واحنا المصريين حتى لا نخطر على بالنا زيارتها.. لكن أرجوك ألا تذكر ذلك لمارجريت لأنها سألتنى ونحن فى غرفة النوم نستعد للنزول: هل رأيت المتحف المصرى؟ فقلت لها: كثيراً جداً.. ولم أكن أكذب، لأننى أقصد طبعاً أننى رأيته من الخارج وأعرف أنه فى ميدان التحرير»!!

وفى المساء جلسنا «مارجريت» و «ثناء» وأنا، فى فراندق التى تطل على القاهرة كلها من الطابق الثانى عشر، والتى اعتبرها أجمل وأكبر وأوسع فراندة فى مدينة القاهرة الكبرى إن لم يكن فى مصر كلها.. لا أعرف مساحة ملعب كرة القدم بالضبط قد إيه، لكن فراندق مساحتها تماثل ربع مساحة ملعب كرة القدم!! المهم جلسنا فى المساء نشرب الشاى وتأكّل «مارجريت» عدة ملاعق من طبقها (أم على)، ثم تعيد الطبق إلى الثلاجة مرة أخرى مع التنبيه المشدد بأن هذا هو طبقها الخاص وأن أى اعتداء على طبقها سوف تعتبره عدواناً على إنجلترا كلها، وسوف تقابله بالمثل..

وجاء عدد من الأصدقاء لزيارتنا في المساء للترحيب والاحتفاء
 بمارجريت التي سمعوا عنها كثيراً منى.. وكانت دهشتها كبيرة حين
 فوجئت بهم يحملون لها عدداً من الهدايا التذكارية رغم أنهم
 لا يعرفونها بعد وأول مرة يرونها فيها.. قدمت لها «إيلين» و «حياة»
 مروحة يد أنيقة جداً، وقالت لها «إيلين» - اليونانية الأصل المولودة في
 صعيد مصر ولا تعرف كلمة واحدة من اللغة اليونانية ولا الإنجليزية،
 ولا تجيد من اللغات «الأجنبية» إلا اللهجة الصعيدية وارد قنا - :
 «أيوه يا حبيبتي.. حانتفك في الحر ده الى انتى مش واخذه عليه في
 بلدكم».. وقدم لها أستاذى «عزالدين رضوان» صينية حلويات شامية
 فاخرة.. وقدم لها «سيد محيى الدين» لوحة فرعونية كبيرة مرسومة
 على القماش لكى تأخذها معها إلى إنجلترا لتبرزها وتعلقها في بيتها
 تذكراً لزيارتها لمصر.. وقدمت لها «سعاد حسين» خاتماً بفص من
 الفيروز اشترته لها من مكة وكانت تنوى أن ترسله لها في لندن معى..
 وقدم لها «عادل» دعوة مفتوحة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) في
 الشرقية لكى ترى الريف المصرى وتتذوق الأكل الفلاحى: الفطير
 المشلتل والجينة القديمة والعسل الأبيض والحمام المحشى فريك.
 وحين طالت القعدة همست «مارجريت» فى أذنى: «أليس من
 اللائق أن نقدم عشاء للضيوف»؟! قلت لها: «عندك حق.. كلك كرم»
 قالت والسعادة تملأ وجهها: «سأنزل أنا وثناء لنشتري العشاء من
 الرستوران المواجه للعمارة.. سنعشى الضيوف من ذلك الكيك
 المصرى الرائع.. تأمية»!!
 أخيراً حفظت اسمها، لكن عذراً للكنة: طعمية!!

الفصل الثالث

نابليون بونابرت.. إجازة يوم الجمعة !

في الصباح ونحن جالسون للإفطار قالت لى «مارجريت»: «فلقت دماغى بأحاديثك التى لا تنتهى عن طفولتك السعيدة، وعن حبك لوالديك وحب والديك لك.. أريد أن أرى البيت الذى ولدت فيه والذى الذى نشأت فيه».

ونزلنا لنركب الأندرجراوند - هواية «مارجريت» المفضلة الآن، بعد الطعمية - ونزلنا فى محطة السيدة زينب.. كان عيد الأضحى على الأبواب وباقى عليه أيام قليلة، لذا فبمجرد خروجنا من باب محطة السيدة زينب، وجدنا أنفسنا فجأة فى وسط قطع من الخرفان المعروضة للبيع.. وهما «ماجى» وزايط - وهى تحب الحيوانات جداً، كل الحيوانات - لمنظر الخرفان تسرح فى الشوارع طليقة هكذا وكأنها ليس لها صاحب.. وراحت «مارجريت» تربت بيدها على رأس ورقية كل خروف بحنان شديد وكأنه كلب أو قطة!.. وظن بائع الخرفان أننا جئنا

لنشترى خروفاً، وأن «مارجريت» تتحسسها لتختار واحداً منها، فوقف من بعيد ينتظر النتيجة: زبونة خواجاية وزوج مصرى.. لكن حين انحنت «مارجريت» على حمل صغير وضمته إلى صدرها وقبلته في رأسه اتسعت عينا البائع من الدهشة. قطعاً ظن أن الست دى مسكينة مخلولة ومخها مش مضبوط.

ومشينا إلى شارع السد البرانى فشارع التلول، حتى القديمة. وأريتها البيت رقم ٤٣ الذى ولدت فيه، لكنه هدم الآن وبني مكانه عمارة حديثة.. وحكيت لها حكايات الطفولة وكيف كنا نلعب الكرة الشراب فى الشارع بعد خروجنا من المدرسة، ثم الكرة الكاوتش بعد أن كبرنا شوية.. وكيف كنا نصنع من شنطة كتبنا المدرسية (الجون) الذى يقف فيه حارس المرمى، وكيف كانت نتائج مبارياتنا دائماً سخية وكريمة: ١٨-١٤ مثلاً أو ١١-٩ فى المباريات القوية.. وكيف أن شارعنا هذا وحده قد خرّج عدداً من أصحاب الأسماء اللامعة فى كل المجالات، خصوصاً فى الفن والأدب: من جينية ناميش التى تعتبر امتداداً لشارعنا خرج الأديب يوسف السباعى، ومن قبله والده المرحوم محمد السباعى، وغير بعيد عن شارعنا خرج يوسف وهبى، ومحمد كريم، ومحمود تيمور، وزهرة العلا، وبرلنقى عبد الحميد والمذيعتان فاطمة فهمى وجولار عرفان.. ومن شارعنا نفسه خرجت المطربتان شريفة فاضل وثناء ندا ابنتا الشيخ محمد أحمد ندا شيخ الجامع الى على الناصية وكان بيتهما لصق بالجامع مباشرة، والمخرج المسرحى كرم مطاوع، والممثل حسن يوسف، والكوميدي أحمد الحداد، والمرحوم عبد المنعم إبراهيم. ومن المقرئين الشيخ محمد رفعت، والشيخ

مدين منصور مدين، ومن لاعبي كرة القدم حنفى بسلطان وشلة أولاد الحسنى، ومن الديبلوماسيين نبيل عثمان المستشار الإعلامى لمصر فى هيئة الأمم المتحدة، ومن الصحفيين اللامعين - هاها - حسين قدرى..

وطبعا كان الاسم الوحيد من بين كل هذه الأسماء الذى عرفته «مارجريت» هو اسم حسين قدرى فقط..

وصلنا إلى ميدان السيدة زينب.. ورغم أن اليوم كان يوم جمعة والزحام شديد، إلا أننا - ببطاقتى الصحفية المغلفة بورقة من فئة الخمسين قرشا، وبعد أن وضعت «مارجريت» إشارباً على شعرها الأحمر - استطعنا أن ندخل مسجد السيدة زينب من باب الحريم، لكى ترى «مارجريت» ضريح السيدة زينب من الداخل لتكون أول مرة فى حياتها ترى فيها ضريحاً.. ولم تهضم عقليتها الأوروبية فكرة (الضريح) وأن يكون هناك شخص ما مدفون هكذا فى وسط واحد من أهم ميادين القاهرة وأن بتكالب الناس رجالاً ونساء، بالآلاف، لزيارة ذلك الضريح كل يوم.. مسألة غريبة على تفكيرها الأوروبى رغم أنها سيدة مثقفة وقرأت كثيراً عن الإسلام بالذات، لكن هذه هى أول مرة تواجه فيه الأفكار والعادات الإسلامية وجهاً لوجه.

لكن الذى أدهشها جداً وأزعجها جداً - إلى درجة الفزع - أنها رأت خادماً المسجد يضرب النساء المتجمعات داخل الضريح بحزام جلد فى يده لكى يفسح لها هى الطريق حتى تصل إلى الضريح نفسه!! ومع ذلك فقد تقلصت ملامح وجهها وكادت أن تبتكى من الرهبة والخشوع

وهى تقف أمام الضريح بأعمدته النحاسية السالمة، ونقوشه العربية الدقيقة، وإحساسها بأنه فى داخل هذا الكشك النحاسى المربع يرقد جثمان سيدة من بيت النبى محمد ﷺ، عاصرتة وعاشرتة، وماتت منذ أربعة عشر قرناً أو أكثر من ١٤٠٠ سنة..

وبمجرد خروجنا من باب المسجد التف حولنا حشد كبير من الشحاتين رجالاً ونساء.. وظنت «مارجريت» أنهم يحيونها ويرحبون بها فابتسمت لهم ابتسامة واسعة. وقالت: «هاللو» ونقلت شنطة يدها إلى يدها اليسرى لكى تبدأ فى مصافحتهم.. لكننى جذبتها من ذراعها لكى أخرج بها من وسط هذا الحشد قبل أن تكتشف الحقيقة. وننفذ أمام الأجانب.. وأكدت لها ظنها أنهم يحيونها لأنهم عرفوا أنها أجنبية من شعرها الأحمر.

بعد مسجد السيدة زينب أخذتها لمشاهدة متحف (بيت منج) الأثرى فى حارة (منج) وراء المدرسة السنية.. (بيت منج) على قدر ذاكرتى كان مقر قيادة «نابليون بوناپرت» أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ثم أصبح بيت واحد من قواده بعد ذلك: «كليبر» أو «مينو» لم أعرف بالضبط، لأننا فوجئنا بأن البيت المتحف كان مقفلاً لأن اليوم هو يوم الجمعة.. وكان المسئولين عن الآثار أو المتاحف فى مصر يعتقدون أن السياح لا يجيئون إلى مصر فى أيام الجمعة!

وعدنا إلى شارع الشيخ البغال فى السيدة زينب لكى أفرجها على السوق المفتوح المقام فى الشارع.. فشاهدت الباعة وهم يعرضون بضاعتهم على عربات اليد أو على أقفاص من (الجريد) موضوعة على

الأرض.. ورأت محل (الفراجى) الذى يبيع الفراخ والحمام والبط والأوز والأرانب، وأعجبها شكل المحل جداً لأنه ليس موجوداً فى أوروبا كلها محلات من هذا النوع، لأن ذبح أى شىء غير مسموح به فى البيوت فى أوروبا.. لا تستطيع أن تشتري فرخة صاحبة أو بطة صاحبة لكى تذبحها فى بيتك.. سوف يذبحك الجيران، ويذبحك البوليس الانجليزى لو اكتشف أو لو أبلغ عنك أحد.

ورأت «مارجريت» محلات السماكين والسماك الحى يلعب ويلعلط. ويتنطط صاحباً فى طشوت وأحواض مليئة بالماء موضوعة على الرصيف فى الشارع أمام المحل، وهو لا يعرف أنه بعد ساعات قليلة سوف لا يتنطط ولا يتلعلط ولا حاجة أبداً بعد أن يكون قد استقر فى بطون أهالى حى السيدة زينب الكرام.

وأعجبت مارجريت تماماً - كفنانة - بحوارى السيدة زينب الضيقة المبلطة بالبلاط الحجرى المربع الكبير.. وفى سوق شارع سلامة - (حيث جرت أحداث رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم) - فتحت عينيها - الخضراوين الجميلتين - على اتساعهما وهى ترى ثمار الفراولة الحمراء الزاهية الجميلة الرائعة، معروضة فى (قفة) على الأرض والكيلو منها يباع بـ ٥٠ قرشا مصرى فقط، يعنى أقل من ٩ بنسات إنجليزية، بينما الرطل الواحد منها يباع فى إنجلترا بجنيه استرلىنى كامل أو خمسة جنيهات ونصف مصرية.. فسألتنى كم تزن هذه القفة تقريباً! افقلت لها: «حوالى ١٠٠ أو ١٥٠ كيلو.. هل تريدان أن تأخذيهما كلها؟» فقلت بحسرة: «لا.. نأخذ ٤ كيلو فقط.. لكن أسأل البائع هل هو موجود هنا كل يوم،

أو اقترح عليه أن ينتقل ليجلس تحت العمارة عندنا في ميدان رمسيس» ومن فرط سعادتها كادت أن تقبل البائع الصعدي وهو يعطيها كيس الفراولة في يدها لولا أنني حذرتها من تقبيله وإلا فقد يطلب منها أن (تصلح غلطتها).. وكانت طول الوقت - منذ أن وصلت إلى مصر - وهي تذكرني بشيء ما وأنا أقول لها «حاضر»، حتى وجدته في سوق شارع سلامة، فاشتريت لها: كيلو تمر هندي!! كانت قد ذاقته مرة عندى في بيتى في لندن فظلت تتحدث عنه وعن طعمه ومذاقه الرائع لمدة خمس سنوات بعد ذلك، وأظنها ما ظلت على صداقتى طوال هذه السنوات إلا طمعاً في أننى سوف أشتري لها يوماً. كيلو تمر هندي من السيدة زينب، وها قد حدث، وأظنها سوف تهجرنى الآن بعد أن نالت منى ما كانت تبغى..

قالت لى «مارجريت» بعد أن خرجنا على وش الدنيا إلى ميدان السيدة زينب، إن الأسواق المفتوحة في الشارع موجودة في لندن. وفي كل مدن أوروبا، لكنها هناك منظمة ومنضبطة إلى الحد الذى يفقدها بهجتها كأسواق مفتوحة.. لكن السوق الذى رأيته اليوم في السيدة زينب بطابعه المحلى والشرقى تماماً والزحام والصخب والزبطة، وأصوات الباعة العالية ينادون على بضاعتهم بطريقة منمغة وكأنهم يغنون، ويهللون للزبائن ويتبادلون معهم المرح والمداعبات والهازار ويعطونهم (كبشة فوق البعجة).. كل هذا «الجو» الموجود هنا هو الذى يجعل للسوق هنا طعماً شرقياً مختلفاً تماماً عن السوق في أوروبا.

ونظرت مارجريت في ساعتها فقلت لها على الفور: «نعم، نحن في

مصر أيضًا نتناول وجبة الغداء.. ورغم أن حى السيدة زينب هو أشهر مكان لعمل صديقتك الطعمية فى مصر، إلا أننى سأدعوك اليوم إلى أكلة أخرى.. أشهر أكلة مصرية فى العالم كله، ومن يتذوقها مرة يظل يتذكرها طول عمره»..

وهكذا تعرفت «مارجريت» على الكباب والكفتة لأول مرة.. وأعجبت بها إلى أقصى حد.. وانهلت على سلطة الطحينة حتى أنها أخذت الطبق من وسط المائدة ووضعتة إلى جانبها ووضعت ذراعها حوله لكي تستأثر به وحدها.. ولأننى شعبان من سلطة الطحينة فقد اكتفيت بمشاهدة ذراعها الذى بدا لى أطرف كثيرًا من سلطة الطحينة.. وفرحت كطفلة صغيرة وهى ترانى أقطع رغيف العيش البلدى بيدي بدون سكينه. وأغمس لقمة الخبز فى طبقة سلطة الـ (بابا غنوج) بيدي بدون شوكة.. فأزاحت شوكتها وسكينها جانبًا، وفعلت مثلى وهى فى غاية السعادة.

بعد أن انتهينا من الغداء سألتنى: «ما هو برنامجنا بعد ذلك؟!.. قلت لها وقد عمل الكباب والكفتة عمايلها، وشعرت بجفنى يتشاقلان: «لا شيء سنعود إلى البيت لنستريح قليلًا، ثم نفكر فيما نفعله فى المساء» قالت: «عد أنت إلى البيت، ونم ١٠ ساعات إذا شئت.. أما أنا وثناء فإن لدينا مشوارا آخر.. تعالى يا ثناء».. وأخذت ثناء فى يدها وتركتانى!

حكى لى «ثناء» بعد عودتها إلى البيت أن «مارجريت» قالت لها إن زيارة واحدة للمتحف المصرى لا تكفى، وأنها تريد أن تقوم فيه بجولة أخرى على راحتها، وتأخذ وقتها فيه دون أن تكون معها مرشدة سياحية (تسربها). وتنقلها نقلات سريعة على كيفها. وكأنها تدلق عليها شوية

المعلومات اللى هى حافظاهم لكى تخلص منها وتعود إلى مكتبها.. لذا فقد ذهبت هى و «ثناء» مرة أخرى إلى المتحف المصرى فى ميدان التحرير حيث قضيتا فيه ٤ ساعات كاملة شاهدتا فيها جناح توت عنخ آمون.. وكانت «مارجريت» هى التى تشرح لثناء التاريخ المصرى الفرعونى الذى درسته - مارجريت - مرتين: مرة وهى تلميذة فى المدرسة الثانوية، ومرة وهى طالبة فى كلية الفنون الجميلة، حين درست الفن الفرعونى المصرى القديم.. وقالت لى «ثناء» إنها كانت سعيدة جداً، وهى تستمع إلى شرح «مارجريت» لها للتاريخ المصرى لأنها - ثناء - كانت قد نسيت أصلاً شوية التاريخ الذى درسته وهى تلميذة فى إعدادى، ثم ألقته وراء ظهرها تماماً بمجرد أن انتهت من امتحانها فيه.. وأذكر الآن أننى سألت «ثناء» مرة وهى طالبة فى كلية التجارة: «ثناء عندك فكرة عن التاريخ المصرى؟» فقالت مندهشة: «أعرف التاريخ الميلادى والتاريخ الهجرى. والتاريخ القبطى: أمشير وطوبة وكوبا وحاجات كده.. لكن فيه حاجة اسمها التاريخ المصرى كمان»!!

هايلة «ثناء» دى.. يابخت تلامذتها بيها..

حين عادت مارجريت و «ثناء» إلى البيت عصرًا كنت قد نمت واسترحت وقمت.. وشربنا الشاي فى الفرانة وقد خلعت «ثناء» حذاءها وفردت ساقها أمامها لترى قدميها اللتين تعبتا من اللف مع «مارجريت» طول اليوم.. بينما «مارجريت» وفنجانها فى يدها تدور على قدميها كالنحلة. لكى تستمتع برؤية القاهرة كلها من هذا الارتفاع.. ثم جاءت لتضع فنجانها على المائدة أمامنا وهى تقول: «١٠ دقائق فقط

وسأكون مستعدة وجاهزة للنزول» فقالت «ثناء» بفزع: «والله العظيم حاعيط.. نزول؟! عايزة تروحي فين تاني؟ إنت مابتعبيش؟!» قالت «مارجريت»: «مش احنا معزومين على سهرة في العاشرة مساء؟ الساعة الآن السادسة.. هل سنقضى ٤ ساعات قاعدين في البيت نتأمل في جمال بعض ولا نفعل شيئاً مفيداً؟!.. تعالوا نخرج نروح أى مكان، ثم نعود إلى البيت قبل العاشرة.. مارأيكما في ذلك؟!»..كشرت «ثناء» تكشيرتها الجميلة وهى تغطس في كرسيها، وكأنها لا تنوى أن تتحرك من مكانها لمدة ١٠٠ سنة قادمة على الأقل، وقالت: «الدور عليك أنت الآن يا أونكل.. لقد أخذت نصيبى معها اليوم ولن أتحرك من هنا الآن حتى لو قامت الحرب.. فاذهب أنت معها وإذا أكلتبا جيلاتى فأرجوك أن تأكل واحدة زيادة بإسمى.. واحدة كبيرة من فضلك» وأغمضت عينيها ونامت في كرسيها..

ونزلت أنا ومارجريت.. وأمام باب العمارة وجدنا أوتوبيسًا واقفًا في إشارة المرور، فسألتنى «مارجريت»: «هل هذا الأتوبيس يذهب إلى أى مكان؟» فقلت لها مندهشًا: «طبعًا، فهو لن يقف هنا طول عمره» فقفزت «مارجريت» فيه على الفور لكي تركب - لأول مرة - أوتوبيسًا قاهريًا.. والمدهش جدًا الغريب جدًا أن الأتوبيس لم يكن مزدحمًا، وكان نظيفًا من الداخل وكأنه لسه خارج من الغسيل حالًا، بل ووجدنا مكانين متجاورين جلسنا فيهما معًا.. وطبعًا لم أذكر لها أن هذه هى أول مرة لى خلال العشرين عامًا الماضية التى أركب فيها أوتوبيسًا فى القاهرة.. وأجلس على مقعد.. تركتها (على غماها) تظن أن ذلك هو الشيء العادى

الذى يحدث كل يوم.. لأن الظروف كانت كلها مواتية اليوم فيها يبدو، فإنها قد أعلنت انبساطها جداً من مهارة سائق الأوتوبيس، وقيادته المتزنة الهادئة، وقارنته بسائقى أوتوبيس رقم ٥٧ اللندنى الذى تركبه أحياناً ومعظمهم من الانجليز الزوج المتوحشين الذين يتعاملون مع الأوتوبيس وكأنه سيارة سباق.

ونزلنا من الأوتوبيس بالقرب من مبنى التلفزيون لكى نتمشى على كورنيش النيل من عند ماسبيرو فى اتجاه فندقى سميراميس وشبرد، وهى مبسوطة جداً من شكل الجالسين على الكورنيش وقت الغروب: اثنين اثنين، ولد وبنت ولد وبنت، أو أسر بكامل عددها: الأب والأم ودسته أولاد، وحلل المحشى وصوفى السمك ورصة أرغفة العيش البلدى فوق بعضها وأكواب الماء الثلج من الـ (كولمان) الذى ظنت «مارجريت» أن الحكومة توزعه مجاناً على الفقراء فى مصر، لأنها رأت مع كل أسرة (كولمانها) الخاص، ومعظمها بلون واحد، الأزرق أو اللبنى.. وتركته على اعتقادها فهى لاشك سوف تحكى ذلك لكل أصدقائها ومعارفها بعد عودتها إلى إنجلترا.

واستكملنا تمشيتنا لكى أراها جزيرة المنيل.. أعجبها جداً شكل النيل ليلاً والأضواء تنعكس على صفحته المنبسطة الواسعة.. والناس جلوس على السور الحجرى للكورنيش وفى حدائقه الصغيرة رجال وستات وشبان وبنات وأطفال، يأكلون ويشربون ويرحون، وكل أسرة معها جهاز الراديو الكاسيت بتاعها أو تليفزيونها الصغير بالبطارية حتى لا يفوتهم شىء من البرامج التى يحبونها وهم خارج البيت.. كل شىء

موجود الآن في مصر فيما يبدو.. باعة الدرة المشوى على الفحم وباعة الترمس بحباته الذهبية على عربات اليد والكلوبات المضيئة وصف قلل الماء.. أعجبها جدًا منظر الناس يدون أيديهم فيتناولون قلل الماء: ويرفعونها إلى أعلى فيسقط الماء منها إلى أفواههم المفتوحة فيشربون ويرتوون دون أن تلمس القلل شفاههم.. وأرادت أن تقلدهم، وتفعل مثلهم لكنني منعتها بإصرار خوفا من أن (تشرق) وتموت منى «غرقًا» على كورنيش النيل.. أعجبها شكل المباني القديمة الباقية على كورنيش النيل عمرها قرن من الزمان على الأقل تجاورها وتلاصقها المباني الحديثة على أحدث طراز معمارى.. أعجبتها الأشجار الضخمة القديمة العتيقة وفروعها تتدلى حتى تلامس الأرض وشكلها يوحي بأنها في مكانها هذا منذ مئات السنين.

تعبت من المشى فدخلنا واحدًا من الكازينوهات المنتشرة على كورنيش النيل في هذه المنطقة.. ومن أول لحظة ومن قبل أن نجلس شعرت أنا أننا قد دخلنا «فخا» وليس كازينو.. شكل الجرسونات أقرب إلى الفتوات، وجميعهم متجهمون ورافعون حاجبًا ومنزلون حاجبًا زى فريد شوقى، ويتعاملون مع الزبائن بغلظة وبسخف متعمدين وكأنه نوع من الإرهاب.. طلبنا زجاجتين (سفن آب) فجاء بهما الجرسون بعد أكثر من نصف ساعة ووضعهما أمامنا ومشى.. فنأديته وقلت له: «إحنا حانشريهم هنا مش حاناخدم معانا البيت.. حانشريهم وهم مقفولين؟! فقال وهو ينظر في عيني ببرود وكأنه يشتمنى: «حضرتك ما طلبتش منى إنى أفتحهم» قلت مندهشا: «مش عادة إن الزباين هى اللى تفتح

القزازين.. ثم مفيش كوبايات بتيجي مع الطلبات؟! فقال بحدة وكأنه موشك أن يمسك في خناقى: «حضرتك تطلب كل الى أنت عايزه مرة واحدة علشان احنا مش فاضيين.. الكازينو فيه زباين تانيين غيرك».

وتركنا ومشى!!

كان ممكنًا أن أظن أن وجود «مارجريت» معى بشكلها الأجنبى، وشعرها الأحمر ممكن أن يكون قد ضايق الجرسون المتدين - مثلاً - لكننى كنت قد لاحظت أن كل الجرسونات يتصرفون بنفس الطريقة مع كل الزبائن، فعرفت أن الأمسية - غالباً - لن تنتهى على خير.. وبعد أن شربنا الب (السفن آب) - من الزجاجاة مباشرة - طلبت الحساب فقال لى الجرسون الفتوة على الفور: «سته جنيه ٧٥ قرش»!!.. قلت وأنا أشعر كأن نشالاً يهدى بى بطواته ليأخذ فلوسى معتمدًا على أن معى فتاة أجنبية، لن أجرو أن أجادله أمامها حتى لا أتبهل أنا وهى: «سته جنيه و٧٥ قرش علشان ٢ سقن أب؟ اروح هات لى فاتورة بالمبلغ ده» فقال بشراسة: «ما بنطلعشى فواتير، وهو الحساب عندنا كده»!! قلت له بغلظة أنا أيضًا: «أنا صحفى وعايز فاتورة ومش حادف ولا مليم إلا بفاتورة.. وإذا ما كنتش حاجيب لى فاتورة يبقى حانروح سوا قسم البوليس»!!.. وبهت حين سمع كلمة صحفى وتركنى واختفى.. وبعد قليل جاءنى فتوة آخر، مبتسمًا هذه المرة، ليقول لى: «المعلم يقول لك ادفع اللى تدفعه» قلت له: «مش حادفع ولا مليم واحد إلا بفاتورة» قال: «١٢٠ قرش كويس»؟! قلت: «كويس.. لكن برضه عايز فاتورة» قال وابتسامته للزجة تملأ وجهه من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين: «خلاص، خلى الحساب عندنا المرة دى» قلت: «لا المرة

دى ولا المرة الجاية.. عايز فاتورة وإلا حاسرج من هنا على قسم البوليس دوغرى» قال: «الى تشوفه سعادتك» وتركنى واختفى هو الآخر.. ولمدة نصف ساعة التالية لم ألمح جرسوناً واحداً فى كل أرجاء الكازينو.. اختفوا جميعاً وكأنهم يرغموننى على أن ننصرف دون أن أدفع شيئاً حتى لا أقضى الليلة كلها فى انتظار الجرسون الذى لن يجيىء.. فتركت على المائدة ١٢٠ قرشاً وانصرفنا.

أريد أن أتصور ماذا سوف يفعل بقية زبائن هذا الكازينو وقت الحساب.. أو أن ذلك حدث معى فقط لأنه كانت معى سيدة تبدو أجنبية.. وماذا كان سيفعل اثنان آخران لو كانا كليهما من السياح الذين يشاء حفظهم العاثر أن يقعوا فى هذا الكازينو أو مثيله!! هل هذه الأماكن تخضع لرقابة ما أو لتفتيش ما مفاجئ من أجهزة السياحة أو شرطة السياحة؟! هل تعطى السياح وهم داخلون فى مطار القاهرة نشرة صغيرة مطبوعة بعدة لغات. نقول لهم فيها: «لو خدعكم أحد، أو سرقكم أحد أو غشكم أحد أو هددكم أحد فاتصلوا بشرطة السياحة فى هذا الرقم».. أم أن هذه الأماكن والكازينوهات محمية بشكل أو بآخر حتى تستطيع أن تنصرف هكذا دون أن تخشى شيئاً؟

بعد أن خرجنا من الكازينو طلبت منى «مارجرى» أن أحكى لها ما حدث بالضبط، فحكيت لها كما حدث تماماً لأنه جزء من المادة الصحفية التى أنا بسبيلها الآن.. فسألتنى: «وهل قلت لهم. إنك صحفى لذا تركونا حتى ننصرف فلا تحدث مشاكل»؟! قلت: «نعم» قالت: «كان يجب ألا

تفعل ذلك وأن نذهب إلى قسم البوليس.. وقد فعلت أنا ذلك مرتين وأنا في إيطاليا».

عدنا نتمشى على الكورنيش مرة أخرى حتى وصلنا إلى فندق شبرد، فانحرفنا يميناً لندخل إلى ميدان التحرير، فوجدنا أنفسنا أمام جامع عمر مكرم، وكان فيه سرادقان للعزاء في وقت واحد كما يحدث في معظم الأيام.. فتوقفت «مارجريت» أمامها وسألتني: «Is it a street party.. هل هي حفلة تقام في الشارع»؟! فشرحت لها فكرة سرادقات العزاء التي تقام لكى يستقبل أهل المرحوم أصدقاء الأسرة والجيران والزلاء، الذين يذهبون للعزاء، فلا يضيّق بهم بيت أسرة المرحوم.. فأطلت «مارجريت» برأسها - من على الرصيف الآخر - داخل السرادق وسألتني مندهشة: «وهل كان للمرحوم كل هذا العدد من الأصدقاء»؟! قلت: «هذا السرادق يفرغ ويمتلئ مرة أخرى كل نصف ساعة.. نحن شعب عسرى ودود بمجامل ونحب أن نأخذ بخاطر بعض في الأفراح وفي الأحزان.. والأصدقاء عندنا يظلون أصدقاء طول العمر، وليس مثل الحال في أوروبا حين يترك شخص ما عمله في موقع ما فإن علاقته بكل زملائه في هذا العمل تنقطع فوراً وكأنه لم يكن زميلاً لهم لعدة سنوات، أو حين تنتقل أسرة من حي لتسكن في حي آخر فتتقطع صلتها بكل الجيران السابقين.. إن كل أصدقائي وجيراني الذين عرفتهم منذ كان عمري ٦ سنوات لا زالت صلتى بهم مستمرة حتى اليوم، وغالباً ما يصبح أولادهم أصدقائي وأصدقاء أولادى، وهكذا».. فقالت «مارجريت» في أسى: «إننى لم أر أختى الصغرى «چيل» منذ أكثر من ١٥ سنة ونحن

نعيش في مدينة واحدة، وأولادها الخمسة لا يعرفون ابنتي. ولم يروها طول عمرها. وهم أولاد خالة.. وحين تتصل بي أختي تليفونيا مرة كل سنة، فهي تتصل لمجرد أن تعرف أنني لا زلت على قيد الحياة ولم أمت بعد.. وإذا ردت عليها ابنتي فهي تقول لها: إعطيني مارجريت، أنا چيل.. فتقول لى ابنتي: مامى.. جيل على التليفون، وهى خالتها.. لقد مر على تخرجى من كلية الفنون الجميلة وتركى بيت الأسرة ٢٥ سنة الآن، لم أر أُمى خلاها إلا مرة واحدة فقط، وبعد ١٨ سنة لم أرها فيها، حين أصررت أنت على أن ترى أُمى، فذهبنا معا لزيارتها منذ ٧ سنوات، ولولا إصرارك لما ذهبت.. هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. لذا تجدنى مندهشة تمامًا من شكل علاقتك بأسرتك، وبأصدقائك الذين لا يخلو منهم بيتك كل مساء.. لقد انتهى شيء اسمه (الصداقة) في أوروبا كلها الآن.. للأسف».

الذى قلته لمارجريت عن أننا شعب عشرين ودود يقيم للعلاقات الأسرية وللصداقة وللجيرة وزناً كبيراً، لم يكن فيه أى قدر من المبالغة فنحن كذلك فعلاً. ومن أمثالنا الشعبية (النبي وصى على سبع جار) وهو ترجمة شعبية للحديث الشريف (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)..

حين بدأت حياتى الصحفية كان من بين الذين تعلمت على أيديهم أسرار المهنة: أستاذى الصحفى القديم والكاتب المسرحى الآن «أنور عبد الله».. ثم تشاء الظروف بعد ذلك بعدة سنوات أن نتجاور فى السكن فى عمارة واحدة فى ميدان رمسيس، فتعرفت أيضاً بزوجه الفنانة «سعاد حسين».. وبعد سكناى العمارة بشهرين بالضبط أنجبا أول إنتاجهما

«أشرف»، وبعد «أشرف» بسنة و ٨ شهور كان إنتاجها الثاني «سماح» قد شرفت.. ومنذ طفولتها كان «أشرف» و «سماح» صديقين لى أيضا وليس والداها فقط.. «أشرف» الآن هو أحد المديرين فى فندق (شبرد)، و «سماح» هى النجمة الشابة «سماح أنور».

كل هذه المقدمة لكى أصل إلى أننا - «مارجريت» وأنا - مدعوان الليلة من صديقى الشاب «أشرف أنور عبد الله»، وزوجته الروسية الحسنة «جاليا Galia»، لكى نسهر فى سيدنا الحسين لكى ترى «مارجريت» أشهر أحياء القاهرة القديمة.. الحى الذى لا ينام لا ليلاً ولا نهاراً، ويعمل ٢٤ ساعة فى اليوم ٣٦٥ يوماً فى السنة.

حين نزلنا من السيارة أمام الجامع الأزهر مباشرة، وقفت «مارجريت» تملأ عينها منه وهى تهمس لى: «ذلك تاريخ حقيقى.. جامعة دينية عمرها أكثر من ١٠٠٠ سنة.. وقد سبق الأزهر جامعة أوكسفورد وجامعة كمبريدج - اللتين بدأنا كلاهما كجامعة دينية لدراسة اللاهوت - سبقها الأزهر بأكثر من ٣٠٠ سنة، وليس بسنة أو سنتين أو عشرة، لكن بـ ٣ قرون كاملة.. فهل تشعرون فى مصر حقيقة بقيمة أنكم تمتلكون أقدم جامعة فى العالم على الإطلاق».

الحارات الضيقة جداً فى حى سيدنا الحسين، والأزقة المبلطة، والأضواء المتألثة والشوارع السهرانة الصاحية طول الليل، ومحلات الكشرى والفطير والبليلة والكبدية والمخ، والمقاهى العامرة بزبانتها وروادها، والناس التى تملأ الشوارع والميدان وكأننا فى عز الظهر والساعة الآن بعد

منتصف الليل بساعة.. والجو المصرى تماماً الشرقى تماماً الذى يحوطنا، جعل الفنانة التشكيلية فى «مارجرى» تتمنى لو كان معها دفتر الإسكتشات وأقلامها لكى ترسم مجموعة اسكتشات للأزهر ولحى سيدنا الحسين فى الليل.. قعدنا فى مقهى أو منتدى (السكرية) على موائد أرابيسك عليها صوانى كبيرة من النحاس الأصفر، وكراسى من الخوص المجدول.. والشاى الأخضر فى الأكواب الزجاجية الصغيرة والأطباق الزجاجية ذات الحواف المذهبة والشيشة تكرر حولنا يمينا ويساراً، والجرسونات ذوى الجلابيب البيضاء الناصعة وعليها مريلة الجرسون الشهيرة، والقرفة والسحلب والحلبة الحصى.. كل هذه أشياء جديدة تماماً، ومبهرة تماماً للعين الأجنبية فى «مارجرى»، كسائحة وكفنانة.. الأزهر وسيدنا الحسين هو الحى اللاتينى المصرى بالنسبة للأجانب، وهو أقدم وأعرق أحياء القاهرة بالنسبة لنا كمصريين.

سهرنا، وضحكنا، وتطاييرت القفشات المصرية الروسية الإنجليزية.. ورغم أننا نحن الأربعة كنا أصحاب مهن مختلفة ومجالات عمل مختلفة: الإنجليزية فنانة تشكيلية والروسية مرشدة سياحية، والمصريان فندقى وكاتب، إلا أن التشنيعات والقفشات إنهالت فوق رأس الكاتب المسكين الذى أمثله أنا.. حكى «أشرف» عن الناقد الأدبى الذى كتب يعرض كتاباً لمؤلف مغرور، فقال: والكتاب جيد فسارعوا بشراء نسخكم، فلم يبق منه فى السوق إلا عدة ملايين قليلة من النسخ!! وحكت الإنجليزية «مارجرى» عن السيدة التى قابلت بالصدفة فى إحدى الحفلات كاتباً مشهوراً فقالت له: «سيدى إننى مدينة لك، فأمس لم أستطع النوم إلا فى

السادسة صباحاً، وأنا أقرأ كتابك.. بدأت أقرأ فيه في السادسة إلا خمس دقائق!!.. وسألتنى الروسية «جاليا»: «هل أنت صعيدى»؟ فقلت لها: لا، ليه»؟!.. فحككت لى عن الصحفى الصعيدى الذى ذهب ليعمل فى أوروبا فاشتري بيتا بابه الخارجى من الزجاج، فركب له عين سحرية!!

الفصل الرابع

مارجريت تكتشف سماح أنور!

«مستر قدرى.. ستأخذنى اليوم إلى الأهرامات وأبى الهول، أليس كذلك؟!»

«مارجريت» هى التى تقرر الآن المكان الذى تحب أن تراه فى اليوم الذى تريده.. كونها تعيش فى وسط عائلة مصرية، جعلها تشعر بمنتهى الألفة وأنها ليست سائحة أو ضيفة، وإنما هى عضو فى الأسرة لها نفس الحقوق وليست عليها أى واجبات.. فبنات الأسرة كلهن أحبينها ويخدمنها ويلببن طلباتها وكل رغباتها وهى قاعدة هانم لاتفعل شيئاً إلا أن تتفصح وتتفرج وتتبسط وتنتقد وتبدى ملاحظاتها، والكل سعيد بذلك.. سعداء لأنها سعيدة ومرحة ومبسوطة ومستمتعة بزيارتها لمصر وبالجو العائلى جداً الذى يحيط بها.

ورن جرس التليفون: الروسية الجميلة «جاليا» زوجة صديقى «أشرف» - فى الشقة تحتنا مباشرة - تسأل: «ماهو برنامجكم اليوم؟»

قلت: «سنذهب إلى الأهرامات وأبى الهول.. لماذا لا تأتيان معنا؟»
 قالت: «ذلك ما كنت سأقترحه، أن نقضى اليوم كله معا.. سنذهب معكم
 إذن إلى الأهرامات، ثم نقضى بقية اليوم بعد ذلك حول حمام السباحة
 بفندق (رامادا) في بداية الطريق الصحراوي.. ما رأيكم في ذلك؟»

في منطقة آثار أهرامات الجيزة سلمنا رجل الآثار الشهير. دكتور
 «زاهي حواس» إلى مفتشة الآثار السمراء الجميلة «ناهد البكرى» -
 المفتشة هي السمراء الجميلة وليست الآثار طبعاً - كتلة ظرف. وخفة دم
 مصرية «ناهد» هذه.. أدهشني أن عرفت منها أنها خريجة كلية الخدمة
 الإجتماعية، فإن إنجليزيتها ممتازة حتى لخريجة قسم إنجليزى من كلية
 الآداب.. «ناهد» بعد دراسة سريعة في كلية الآثار، تعد الآن رسالة
 ماجستير موضوعها (الخدمة الاجتماعية للطفل الفرعونى).. لست أدري
 أين ستجد «ناهد» أطفالاً فرعونيين لكى تجربى بحثها عليهم !!

ذهلت «مارجريت» لرؤية الأهرامات الثلاثة وقالت أنها لم تتصور
 أبدا أنهم بهذه الضخامة.. وسألت نفس السؤال الذى لا يسأله كل
 السياح فقط، لكن كل المصريين أيضاً: كيف استطاع الفراعنة القدماء
 أن يصعدوا بهذه الأحجار الهائلة الحجم والوزن - ٢ طن أو ٢٠٠٠
 كليوجرام للحجر الواحد - إلى هذا الارتفاع الشاهق ولم يكن على
 أيامهم أوناش تعمل بالكهرباء كما هو الحال الآن؟ وحتى ونحن لدينا
 هذه الأوناش الآن، فكيف يبلغ حجم الونش الذى يستطيع أن يرفع حجراً
 بهذا الثقل إلى هذا الارتفاع: ١٤٦ متراً؟ يعنى ارتفاع عمارة من ٥٠
 طابقاً !! ثم: أى نوع من (السقالات) وقف عليه العمال المصريون

القدماء حتى استطاعوا أن يغطوا جسم الهرم كله بـ(المونة)، بعد أن رسوا كل هذه الأحجار؟! أى معجزة هندسية تلك التى أقامها المصريون الفراغنة وتركوها لتعيش بعدهم آلاف السنين، ولا زالت تعيش حتى الآن، ربما لآلاف أخرى قادمة من السنين!!

«ثم هذه الرمال ليست صفراء، إنها ذهبية.. سواء كان ذلك لانعكاس أشعة الشمس عليها أو لأى سبب آخر، لكنها ذهبية وليست صفراء.. وإذا كانت الرمال هنا لازالت ذهبية بعد كل آلاف السنين التى مرت منذ بناء الأهرامات، إذن فالمنطقة نفسها رمالها ذهبية.. فهل يكون ذلك هو السبب - أو أحد الأسباب - التى جعلت الملك خوفو، ومن بعده ابنه وحفيده، يبنون الأهرامات فى هذه المنطقة بالذات وليس فى أى منطقة أخرى!؟

«أبو الهول - تستطرد «مارجريت» وكأنها لا تتحدث إلينا لكنها تفكر بصوت عال - أبو الهول يؤكد أن هناك أسرارًا كثيرة تحيط به وبمعناه الذى يرمز إليه، وبسبب إقامته فى هذا المكان، وهو يعطى ظهره للأهرامات ولا يواجهها. أسرار لم تكتشف بعد، وحين تكتشف فهى ستغير تاريخ العالم القديم كله. إن أبو الهول هذا هو مفتاح الأهرامات كلها، وسيكون مفتاح التاريخ الفرعونى كله، الذى قد يكتب من أول وجديد وتحدث فيه تغييرات كثيرة لم تكن تخطر على بال أحد..

«مارجريت» رغم استغراقها فى تأملاتها لم تنس - كرسامة - وجهه مفتشة الآثار «ناهد» التى ترافقنا.. مالت علىّ لتهمس لى بعيداً عن سمع

«ناهد»: «هذه الفتاة جميلة جداً.. فرعونية الملامح تماماً.. ولو رأيت صورتها على طابع بريد لعرفت فوراً أن طابع البريد هذا مصرى.. هل كل البنات المصريات بهذا الجمال الفرعونى؟! قلت: «في الحقيقة لأ.. لكن ربما لأن ناهد تعمل في هيئة الآثار.

بعد أن انتهينا من زيارة الأهرامات ذهبننا - بناء على دعوة أشرف و «جاليا» - إلى فندق (رامادا) في أول الطريق الصحراوى لنقضى بقية اليوم في حمام السباحة.. بعد ٣٠ ثانية من وصولنا، كانت «جاليا» بمايوهها البيكى قد قفزت في حمام السباحة الشاسع وراحت تبلط كبلطية مرحة سعيدة هربت من حر يونيو إلى الماء الرطب، وصاحت بمارجريت تستحثها أن تنضم إليها.. الوقت عند «جاليا» غيره عند «مارجريت».. «جاليا» الآن زوجة المصرى وتعيش في مصر والوقت أمامها براح.. «مارجريت» الوقت أمامها محدود لأن أجازتها محدودة.. بعد ٣ دقائق نظرت في ساعتها وقالت لى: «خلاص عرفت أن عندكم فنادق ١٠ نجوم مثل عندنا، وعندكم حمامات سباحة شيك مثل عندنا.. ياللا بينا بأه» قلت لها مندهشاً: «ياللا بينا على فين؟ إننا مدعوان لنقضى بقية اليوم حول حمام السباحة هذا» قالت: «الوقت الضيق لا يسمح لى بهذا الترف.. وعندما أعود إلى لندن أعدك بأننى سأقضى يوماً بأكمله في حمام السباحة القريب من البيت، لا أخرج من الماء طول النهار.. لكن الآن وأنا في مصر أحب أن أتفرج على مصر، وأريد أن أركب الأوتوبيس الآن مرة أخرى لكى أتفرج من نافذته على المناطق التى سنمر بها.. ياللا يامستر قدرى» !!

في مدخل الفندق تقف مجموعة تاكسيات.. ركبنا أولها وقلت للسائق إننا سوف نذهب إلى فندق مينا هاوس - حيث محطة الأوتوبيسات - وهي مسافة لاتزيد عن كيلومتر واحد وأجرها لا يزيد عن ٥٠ قرشا.. لكن السائق قال لي بغلظة وجفاء إن تسعيرة هذه التوصيلة هي خمسة جنيهات!! فقلت له مندهشاً لهذه السرقة العلني الـ (عيني عينك): «موافق، وسأدفع لك ما تريد حتى لو طلبت ١٠٠ جنيه.. لكنني صحفي، وسأسأل في إدارة المرور وفي شرطة السياحة ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا .. فإذا كان صحيحاً فحلال عليك، أما إذا لم يكن صحيحاً فقد، جنيت على نفسك وفقدت رخصتك وسوف يحاسبونك على القديم والجديد وكم سائناً سرقت منذ أن بدأت العمل» .. وتبعثر سائق التاكسي تماماً ولم يجد ما يقوله غير أنه ينتظر على باب الفندق منذ السادسة صباحاً دون أن يركب معه زبون واحد، وأنه رب أسرة كبيرة، وأطفاله لم يأكلوا منذ ٣ أيام وووو.. فقلت له إنني قد سمعت هذه الاسطوانة ألف مرة قبل ذلك وليس فيما يقوله الآن شيء جديد عليّ، لأن كل سائقي التاكسي في الفنادق وفي المطار ينشدون نفس النشيد لجميع الركاب.. وحتى لو كان ذلك صحيحاً فهو ليس ذنب الزبون الذي يركب معك بعد طول انتظارك، وليس مطلوباً منه أن يدفع لك تعويضاً عن وقفك على باب الفندق منذ السادسة صباحاً، وإنما الزبون يدفع عن المشوار الذي يركبه فقط لا غير.. ثم، اختصاراً لكل هذه الحوادث: هل هناك فعلاً تسعيرة بأن أجر هذه التوصيلة هو خمسة جنيهات؟!!

وكنا قد وصلنا فعلاً إلى فندق مينا هاوس ونزلنا من التاكسي،

ففوجئت بالتاكسى بنطلق فجأة بأقصى سرعة دون أن يأخذ منى شيئاً على الإطلاق، وكأنه يهرب قبل أن ألتقط نمرته.. لكننى كنت قد التقطتها فعلاً.

من أمام فندق مينا هاوس ركبنا أوتوبيس رقم ٨٨٨ إلى ميدان رمسيس.. مسعدة جداً ومحظوظة الست «مارجريت» هذه.. ففى كل مرة ركبنا أوتوبيسا بناء على إلحاحها، كان الأوتوبيس رايق وفاضى ونظيفاً وبيلمع. وكأنه لسه خارج من (الأجناس) حالاً.. فى الأوتوبيس الذى ركبناه من الهرم وجدت «مارجريت» حاجزاً زجاجياً يقسم الأوتوبيس من الداخل، فسألتنى: «ليه ده»؟ فشرحت لها مسألة الدرجة الأولى والدرجة الثانية وهى ليست موجودة فى أية وسيلة مواصلات داخلية فى إنجلترا كلها، لا فى الأتوبيسات ولا فى الأندرجراوند.. فأصرت على أن تجلس فى الدرجة الثانية لكى تكون (مع الشعب)!!

وانبسطت جداً - للمرة الثانية - من ركوب الأوتوبيس، ومن الرحلة الطويلة جداً التى قطعناها فيه.. فقد اخترق بنا شارع الهرم كله حتى الجيزة، فجامعة القاهرة والدقى، والمهندسين، والعجوزة، والزمالك وبولاق فشارع رمسيس حتى ميدان رمسيس.. وعند نزولنا سألتنى «مارجريت» عن ثمن التذكرة لهذه الرحلة الطويلة؟ فلما قلت لها إنه ١٠ قروش مصرية يعنى أقل قليلاً من ٢ بنس إنجليزى حتى كادت أن يغمر عليها من الدهشة، لأن أقل تذكرة أوتوبيس فى لندن الآن لأربع أو خمس محطات فقط هو ٤٠ بنساً - (جنيهان مصريان ونصف تقريباً) - وأقل تذكرة فى الأندرجراوند اللندنى ثمنها ٨٠ بنساً - (٤ جنيهات مصرية

و ٤٠ قرشاً) - وربنا يجعل كلامنا خفيف على هيئة النقل العام المصرية !!

مدعوان للغداء اليوم عند صديقتى الصغيرة الفنانة الشابة «سماح أنور» فى شقتها الجديدة فى المهندسين.. جرت العادة منذ سنوات بعيدة أننى فى أول يوم أعود فيه إلى مصر فى أجازة من عملى فى إنجلترا، أن تكون أول وجبة أتناولها فى مصر - غداء أو عشاء حسب موعد وصولى - فى بيت أقرب أصدقائى إلى قلبى: أستاذى الكاتب «أنور عبد الله» وزوجته الفنانة الكبيرة «سعاد حسين».. «سعاد» ست بيت رائعة وطباخة أكثر من رائعة.. وحدث ذات مرة أن عدت من إنجلترا لكى أجد أن «سعاد» فى رحلة (العمره) السنوية - فهى تؤدى العمره كل سنة منذ أكثر من ١٠ سنوات - ومع ذلك فقد كانت مائدة العشاء رائعة مهولة كالاعتاد وأكثر شوية.. فقلت لسماح وأنا سعيد فعلاً: «تسلم إيديكى ياسموحة، بنت ماما صحيح، الأكل حقيقى رائع» فوضعت «سماح» وجهها فى طبقها ولم تنطق بكلمة، لكن باباها «أنور عبد الله» صاح بى مستكراً «سماح؟! دى سماح ما بتعرفشى تسلق بيضة.. أنا يا أستاذ اللى طبخت الأكل ده كله».. فقلت لسماح ناصحاً: لا ياسموحة يا حبيبتي. لازم تتعلمي إزاي تطبخي.. افرضى إنك ما اتجوزتيش، تحتاسي!!

لكن الحمد لله إن «سعاد» موجودة الآن، وهى التى - احتفاءً بمارجريت - قدمت لها سفرة مصرية خالصة، زاغت عينا «مارجريت» فيها عيئاً ويساراً، تريد أن تأكل من كل شيء وتتذوق كل شيء وتعرف

ما هذا وما ذاك.. لكن العين بصيرة والمعدة الأوروبية صغيرة بحكم التعود.. حتى صاحت في النهاية، وهى تحبب على السفرة بيديها الاثنتين كالأطفال المقموصين: «تاني مرة لما تعزمنى اعملوا صنف واحد فقط أو صنفين، علشان أعرف أستمتع بالأكل وأشبع.. لكن بهذه الطريقة لا أنا أكلت من كل صنف حتى أعرف ما هو، ولا أنا قادرة على أن أكل أكثر من ذلك، فماذا أفعل؟!». وأجابتها «سماح» على الفور: «اكتبي لأمينة السعيد» فقالت «مارجريت» مندهشة: «ماذا؟!». قالت «سماح» وهى تدفس وجهها فى طبقها: «ولا حاجة.. قصدى بالهنا والشفاء».

كانت مارجريت قد تعرفت بأنور وسعاد وسماح فى لندن، التى زاروها عدة مرات، والتقت بأشرف كثيراً فى بيتى فى لندن، حين كان يدرس إدارة فنادق فى بلفاست فى أيرلندا، وكان يقضى عطلات نهاية الأسبوع دائماً معى فى لندن.. «مارجريت» تعرف الأسرة كلها، وتعرف أنها أسرة فنية: «أنور» كاتب مسرحى، «سعاد» ممثلة كبيرة، «سماح» ممثلة صاعدة، «أشرف» - بجانب عمله الفندقى - يختار الموسيقى التصويرية للأفلام والمسرحيات.. لكنها لم تر أى شىء على الإطلاق من أعمالهم الفنية: لا أفلام، ولا مسرحيات، ولا مسلسلات تليفزيونية.. فإبنى مصر بشدة على ألا يدخل الفيديو بيتى اللندنى، لأننى فى لندن لا وقت لدى لكى أجلس لمشاهدة الفيديو.. التليفزيون الانجليزى رائع خطير مهول: ٤ قنوات عامة يراها الجميع + أكثر من ٣٠ قناة خاصة، تستطيع أن تراها إذا دفعت رسوما معينة.. ولو تركت نفسى للتليفزيون فسوف أجلس أمامه ٢٤ ساعة فى اليوم تلميذاً مطيعاً فى مدرسة التليفزيون الانجليزى..

لذا فقد ألزمت نفسى بألا أشاهد فيه إلا نشرات الأخبار وبرنامج واحد وفيلم واحد أو تمثيلية واحدة كل يوم مهما كانت الأسباب وحتى لو كان عندى فراغ يسمح بأكثر من ذلك، حتى لا أعود على مسألة (أكثر من ذلك) هذه.

لذا، فبعد الغداء طلبت «مارجريت» أن تشاهد شيئاً لسماح وسعاد على الفيديو.. فعرضت «سماح» لها مقتطفات من بعض المسرحيات التى قامت ببطولتها.. وضحكت «مارجريت» كثيراً وهى تتفرج على «سماح» وهى ترقص فى مسرحية (رافضة قطاع عام) وقالت لها: «هذه هى أول مرة أكتشف فيها أن لك ساقين مثلنا.. فإننى لم أرك أبداً، لا فى لندن ولا فى مصر، ولا حتى فى البيت، بغير البنطلون.. أنت فتاة جميلة ومليشة بالأنوثة، فلماذا تصرين على أن ترتدى هذه الملابس الغريبة التى تجعلك تبدين كما لو كنت Tomboy - Tomboy تعبير إنجليزى توصف به البنت التى تتشبه بالصبيان وترتدى ملابسهم وتتصرف مثلهم).. ثم كانت المفاجأة الأكبر لمارجريت حين عرضت لها «سماح» على الفيديو فيلمها (حالة تلبس) الذى تقوم فيه بدور ضابطة بوليس وتقود موتوسيكلًا ضخماً (هارلى) فى زحمة مرور القاهرة، تطارد به مجرمًا هاربًا حتى تقبض عليه.. وتأكدت «مارجريت» - بحكم أن لديها خبرة سينمائية - من أن «سماح» هى التى تقود ذلك الموتوسيكل الضخم بنفسها فعلاً وليست دوبليسة.. وصفقت - «مارجريت» وليست «سماح» - لسعاد حسين التى قامت بدور أم سماح فى المشهد الذى تصاب فيه بالشلل فجأة حين يموت أمام عينيها ابنها الصبى الصغير أخو

«سماح» في الفيلم.. وبصمت «مارجریت» بأصابعها العشرة - بالإنجليزية - على أن «سماح» مثلة ممتازة، وأن «سعاد» مثلة رائعة، وأن الغداء كان أكثر من رائع.. وذلك للعلم.

مشاكسة هذه السيدة ومغرم بأن تنكش الآخرين وتثيرهم، مثلى تماماً.. اليوم صباحاً قالت لى: «أليس غريباً أن تكون مصر هي أهم بلد إسلامي. ومع ذلك فليس فيها متحف إسلامي واحد»؟! قلت لها مغيضاً: «عندنا في مصر مثل شعبي يقول: لو صبر القاتل على المقتول مات لوحده.. اليوم بالذات هو يوم المتحف الإسلامي، حتى شوقي» وأريتها برنامج زيارتها مكتوباً بالتواريخ، والأماكن باللغة الإنجليزية.. فقالت لكى تزيد غيظي أكثر: «أعرف.. فقد رأيته صباحاً على مكتبك حين استيقظت قبلكما لكى أعد الشاي»!!.. كارثة هذه السيدة.. أعذر زوجها الذى طفش منها وترك لها إنجلترا كلها وعاد إلى وطنه إيطاليا ومن هناك أرسل لها ورقة الطلاق على يد محضر إيطالى..

المسافة بين بيتي في ميدان رمسيس والمتحف الإسلامى في باب الخلق مسافة ليست كبيرة ويمكن أن تقطعها سيراً على الأقدام في أقل من نصف ساعة.. لكن المشوار يستحق المشي، لأنه كله مشاهدات تهم السائح الأجنبى الذى يزور مصر لأول مرة ولم ير هذه المنطقة من قبل.

شارع (كلوت بك) الذى يبدأ من ميدان رمسيس وينتهى إلى ميدان العتبة الخضراء، هو أحد شوارع القاهرة القليلة جداً الآن الذى لا زالت باقية فيه (البواكى) التى كانت طراز مباني القرن الماضى.. وشهرة الشارع ليست فقط مستمدة من وجود البواكى فيه، لكن أيضاً لأنه كان

(حى البغاء) الرسمى، حتى أواخر الأربعينيات.. وكان يطلق عليه أيضاً (وش البركة) و (الواسعة) و (الأزبكية) و (البواكى).. الحارات المتفرعة منه مرتفعة عن مستوى الشارع فتصعد إليها بخمس أو ست درجات عريضة من الحجر بعرض الحارة نفسها.. وحين تصل إلى أعلى هذه الدرجات تجد أمامك الباب الخشبي السميك القديم جداً الذى كانت الحارة تغلق به، والذى لم أر مثيله فى أى منطقة أخرى فى القاهرة إلا فى هذه المنطقة، ولعل ذلك كان له علاقة بكونه كان حياً للبغاء.. ولا زالت هذه الأبواب موجودة حتى الآن.. ثم الحارات نفسها مبلطة ببلاطات حجرية مربعة كبيرة مثل معظم حارات القاهرة فى وقت من الأوقات وحتى أوائل الخمسينات قبل أن يزحف الأسفلت من الشوارع الرئيسية ليغطي الشوارع الفرعية الصغيرة ثم الحارات.. وقلت لمارجريت إننى كنت أحب أن أرى هذه المنطقة من الداخل لولا أننى لست متأكداً من مدى الأمان فى التجول فيها الآن، وهل لازالت منطقة خطيرة أم لا ، سيئة السمعة أم لا، مشبوهة أم لا.. لذا فمن الأفضل أن تشاهديها من الخارج فقط ونحن نمر من شارع كلوت بك..

سألتنى مارجريت: هل فكرت مرة فى أن تكتب تحقيقاً صحفياً عن تاريخ هذه المنطقة وسمعتها زمان، وهل لا زالت هذه السمعة تؤثر على سكانها الحاليين، وما علاقة سكانها الحاليين بسكانها القدامى، هل هم أولادهم. وأحفادهم أم ناس مختلفون تماماً؟ وهل كان البغاء فى هذا الحى يمارس بشكل (عائلى) أو (أسرى)، يعنى سكان البيت كله، يمتنون هذه المهنة ويعيشون منها، ويتوارثها الصغار عن الكبار، والبنات عن الأمهات

والجدات، وهكذا.. وهل كانت الأم التي تمارس البغاء تعد ابنتها وتهينها منذ صغرها لأن تكون هذه هي مهنتها حين تكبر وتنضج؟! وهل كان الآباء والأعمام والأخوال والأخوة الرجال، هم الذين يديرون ويشرفون على نسائهم اللاتي يشتغلن بالبغاء؟! وهل كان يحدث أن «تنحرف» بنت من البنات وترفض أن تشتغل بالبغاء لكي تصبح موظفة في الحكومة أو في شركة أو مدرسة مثلاً؟! وهل كان يعيش في نفس المنطقة ناس آخرون عاديون لا علاقة لهم بمسألة البغاء هذه؟!.. وقلت لى إنه كان (بغاء رسمياً) يعنى معترف به من الدولة والحكومة. فهل كانت البغايا والمومسات لهن سجل تجارى وماسكين دفاتر محاسبية، ويدفعن ضرائب للدولة وأشياء من هذا القبيل باعتبار أن البغاء عمل تجارى يدر إيراداً وربحاً؟! هل كن يعلن عن (بضاعتهن) في الصحف وفي التليفزيون؟! هل فكرت مرة في عمل موضوع صحفى هكذا؟!!

قلت: «فكرت، وعدلت.. لأن عندى موضوعات أهم تشغلنى.. ولن يجيء دور (حى البغاء) فى أولويات موضوعاتى قبل ٦٠ سنة أخرى من الآن.. وحين أكتبه سنة ٢٠٥٠ - إن افكرت، وإن كان لنا عمر - فإننى أعدك بأننى سوف أرسل لك نسخة من المجلة التى سأنشر فيها الموضوع!

مرورا بميدان الخازندار ومحل (سمعان صيدناوى) الذى اختفى منه اسم «سليم سماعيل» وبقي اسم «صيدناوى» - وكان اسمه «يوسف صيدناوى» بالمناسبة - رغم أن شهرته عندنا كمحل ملابس ونحن أطفال كان اسم (سمعان) فقط: رايحين محل سماعيل واشترينا ده من محل

سمعان، ولم نكن نقول صيدناوى أبداً.. إلى المسرح القومى فى ميدان العتبة، الذى قلت للمارجريت عنه إنه يعادل مسرح الـ (أولد ثيك) فى لندن.. إلى ميدان العتبة الخضراء، ومبنى هيئة البريد، ومبنى المطافى.. وحكى لها عن دار الأوبرا التى احترقت فى أوائل السبعينات ولم نستطع أن نقيم بدلاً منها غير بعد ذلك بعشرين سنة، وأقامتها اليابان نيابة عنا.. وإن كنا - فى الحقيقة - شعب غير «أوبرالى»، بمعنى أن الأوبرا كفن، ليست من بين اهتمامات المصريين، ولا حتى معظم المثقفين منهم.. وأقول «معظم» حتى لا يتقمص منى الـ ٣ أوء أفراد الذين يدعون أنهم مهتمون بالأوبرا..

وندخل شارع الفن.. شارع محمد على، الذى أصبح اسمه شارع القلعة منذ أكثر من ٣٥ سنة، ومع ذلك فلا زال الجزء من الشارع الذى يمتد من ميدان العتبة إلى ميدان باب الخلق معروفاً باسم شارع محمد على حتى الآن.

شارع الفن وشارع الموسيقيين وشارع الراقصات وفرقة حسب الله التى كانت فى البداية فرقة واحدة صاحبها واحد اسمه حسب الله، ثم أصبحت أى فرقة تخرج من شارع محمد على اسمها فرقة حسب الله.. الشهرة كده.. وانبسطت «مارجريت» جداً من المحلات التى تبيع الآلات الموسيقية، وتعرض فى واجهاتها الزجاجية الآلات الشرقية الشهيرة، مثل العود، والقانون، والناى، والطبلة، والرق.. أول مرة فى حياتها ترى محلات من هذا النوع.

وفى مواجهة محلات المزيكة هذه مباشرة سوق العتبة الشهير.. الفراخ

والفواكه والأسماء عشرات الأصناف والأنواع والألوان.. كرنفال غذائي قالت عنه «مارجريت» أنه يشبه سوق (كوفنت جاردن) في لندن الذى ظهر فى فيلم (سيدنى الجميلة) الذى مثلته «أودرى هيبورن» ولكن - مرة أخرى - عندكم حياة أكثر ونهض أكثر وحيوية أكثر.. الحمد لله إنها حتى الآن مبسطة من كل شيء رآته.

وصلنا أخيراً إلى ميدان باب الخلق وإلى المتحف الإسلامى الملاصق لدار الكتب القديمة التى لا أعرف ماذا أصبحت الآن.. وهما فى الحقيقة مبنى واحد ينقسم إلى نصفين من الداخل فقط وليس من الخارج. أمام باب المتحف الإسلامى من الخارج وقفت «مارجريت» وثبتت قدميها فى الأرض كطفلة عنيدة، وتربست وهرت لى عينها - الخضراء الجميلة - وقالت: «اسمع.. احتفظ ببطاقتك الصحفية فى جيبك اليوم.. لا أريد مفتشة آثار ولا مرشدة سياحية.. إن كل البيانات مكتوبة على كل المعروضات باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، وأنا أجيد لغتين منها + ٤ كلمات من اللغة الثالثة.. فهل تسمح بأن تتركنى أتفرج وأشاهد هذا المتحف على راحتي، وبدون حرس شرف يشوش على متعة المشاهدة».

وعلى الرغم من أن «مارجريت» خرجت من زيارتنا للمتحف الإسلامى وهى شديدة الانسراح والابتهاج، وقالت لى: «لو أن زيارتي لمصر كانت فقط لكى أزور هذا المتحف لقلت إنها تستحق.. أنا الآن سعيدة تماماً تماماً، ولا أريد أى شيء على الإطلاق بعد ذلك» ونظرت فى ساعتها ثم قالت بخبث: «إلا الغداء طبعاً»!!.. رغم هذه السعادة البالغة

التي أبدتها فنانة تشكيلية أوروبية لها قيمتها ولها وزنها - ٥٥ كيلو - إلا أنني لا أدري لماذا شعرت أن محتويات المتحف قليلة جداً، وأن المتحف واسع الأرجاء جداً بالنسبة لكم المعارضات حتى ليبدو وكأنه فاضى. وأذكر أن هناك أشياء كثيرة رأيته من قبل في زيارتي العديدة لهذا المتحف لم أرها هذه المرة.. وأشياء أخرى - كثيرة أيضاً - رأيته في جناح المتحف الإسلامي الذي كان ملحقا بدار الكتب نفسها يحتل إحدى قاعاتها الفسيحة، أيضاً هذه التحف لم أرها في المتحف الإسلامي اليوم.. لكن بما أن «مارجريت» لا تعرف ذلك ومبسوطة وسعيدة إلى هذا الحد بما رأيته اليوم في المتحف الإسلامي، فالحمد لله.

«ماذا تريد أن تنقذ اليوم يا مدام؟!..» «أعجبني كثيراً ذلك اللحم المفروم المعمول على شكل أصابع ومشوى على الفحم».. «اسما كباب وكفته» «كياب وكفتا».. «لأ.. كباب وكفته».. «كياب وكفتا».. «خلاص، كياب وكفتا كياب وكفتا، خليكي على راحتك.. لكنني سأأخذك اليوم إلى مطعم آخر سوف يعجبك الجو فيه كثيراً».

كنت - منذ ١٥ سنة - حين تحتاج ظروف العمل إلى أن أسهر ليلة كل أسبوع في مطبعة دار الهلال لمتابعة مونتاج مجلة الإذاعة والتليفزيون قبل دخولها إلى المطبعة، كنا شلة المجلة في وسط السهرة نذهب كلنا لتنعشى كباب وكفته من عربية يد في حارة مبلطة صغيرة جداً في مواجهة مسجد السيدة زينب.. فنقعد على دكة خشبية لا تعرف لونها الأصلي كان إيه، ومائدة خشبية لم يكن لها لون أصلي في يوم من الأيام.. ومع ذلك فقد كانت هذه العشوة الظريفة والقعدة الأطراف وشلة شبان المجلة - كنا

شباناً من ١٥ سنة - تساوى تعب وإرهاق الأسبوع.. وكان كل منا يتكلف ليس أكثر من ٣٠ أو ٤٠ قرشا..

ومنذ سنتين هفت هذه القعدة على بالى.. تذكرتها ذات ليلة وأنا سهران فى بيتى مع عدد من الأصدقاء، فنزلنا كلنا لنذهب لتنعشى فى نفس المكان. لكننى وجدت المسألة قد اختلفت تماماً وربنا فتح - بشدة - على كبابجى عربية اليد فتحول - فى نفس المكان بالضبط - إلى مطعم كبير أنيق فى بساطة وشديد النظافة إلى حد يثير الانتباه، ورائحة الشواء تملأ الحارة كلها وتفتح النفس أكثر مما هى مفتوحة.. والسفرجية بجلاليهم البيضاء الناصعة يروحون ويحيثون بين الموائد بسرعة ونشاط، والابتسامات تملأ وجوههم، وسرعة تلبية الطلبات.. تطلب أى شىء فيكون عندك حالاً.. والماء المثلج والأكواب التى تبرق من النظافة، والفوط النظيفة، والموائد البيضاء النظيفة، وكل شىء يجعلك تأكل بنفس وتشبع بنفس، وتقوم هائناً راضياً سعيداً.. ورغم أننى دفعت ليلتها ١٠٠ ضعف بالضبط ما كنت أدفعه من ١٥ سنة، إلا أننى كنت سعيداً لأن الجو والقعدة كانت تساوى ذلك وأكثر، كما أن الأسعار فى كل الدنيا شاطت وولعت..

تذكرت هذا المطعم الطريف وأنا و«مارجريت» خارجين من المتحف الإسلامى، فقلت فى نفسى: «هو ده.. قطعاً حانن بسط جداً من الجو كله على بعضه».

وذهبن.. فباط اليوم كله.

جغرافياً، الموقع هو نفس الموقع، وموجود مطعم فعلاً فى نفس المكان، لكنه شىء مختلف تماماً تماماً تماماً.. من أول لحظة تشعر بأن كل شىء قد

تغير - في خلال سنتين فقط - الموائد لم تمتد إليها يد بأى نوع من التنظيف منذ أن وضعت في هذا المكان، وليس عليها مفارش.. المكان كله على بعضه أصبح معتماً مقبضاً وأرضيته قذرة، وجدرانها قذرة، وكان الزبائن يمسحون أيديهم فيها، لأنه لم تعد هناك فوط على الموائد.. السفرجية يرتدون جلابيب قذرة لا تستطيع أن تكتشف لونها الأصلي وكأنهم يشتغلون في ورشة حدادة وليس في مطعم.. السفرجى الذى أحضر لنا ما طلبناه يبدو أنه كان قد أصيب في حادث ما منذ أكثر من شهر، وذراعه متعور ومربوط بشاش قذر ملئاً بآثار دم أحمر قديم قائم، ويحمل كل الأطباق على ذراعه السليم، ويضعها أمامك على المائدة بذراعه المتعور، وكأنه يضع شاشه وقطنه الملىء بالدم في طبقك.. وشكل التعامل الغريب جداً الذى يتعامل به السفرجية معك وكأنهم يكرهون الزبون ويحتقرونه.. ووضع السفرجى طبقى الكباب - طبقين صاج - أمامنا وتركنا ومشى.. فناديتيه وسألته: «مفیش سلطات»؟! فذهب إلى مائدة قريبة منا كان زبائنها قد أكلوا وانصرفوا فأخذ من على المائدة طبقاً (كان فيه) سلطة خضراء ولم يبق فيه الآن إلا أقل من نصفه!! طلبت منه ماء فذهب وأخذ شفشفقاً «ألونيوم» من أمام زبائن لسه قاعدين. بياكلوا فعلاً!!

حين خرجنا من المطعم قالت لى «مارجريت»: هل قلت لى إنك كنت تأكل في هذا المكان منذ ١٥ سنة؟! قلت: «آه» قالت: «الآن عرفت السبب الذى جعلك تهاجر من مصر إلى إنجلترا»!!

الفصل الخامس

جريمة فى الحمام!

كان اليوم هو اليوم السيئ بالنسبة لمارجريت طوال زيارتها لمصر.. كنا قد تعودنا أن تستيقظ هى بدرى جداً قبلنا، وتأخذ حمامها الصباحى : وتتزوق وتتزين، وتعد الإفطار بنفسها وعلى مزاجها هى واختيارها، ثم تجىء لتوقظنا - قبل الساعة صباحاً - بصينية الشاى والإفطار..

اليوم حين فتحت عينائى فى الصباح وحدى دون أن أجد «مارجريت» أمامى جالسة على حافة الفراش كعادتها وصينية الإفطار بيننا، ونظرت إلى الساعة فوجدتها الساعة والنصف صباحاً، قلقت على «مارجريت»، فأيقظت ابنة أختى وذهبنا إلى غرفة «مارجريت» فوجدناها جالسة فى فراشها وعينها - الخضراوين الجميلتين - مليئتين بالدموع.. «صباح الخير يا مارجريت».. ماذا حدث؟ هل حلمت حلمًا مفزعًا؟!.. قالت من بين دموعها: «أى خير هذا الذى نتحدث عنه.. أنا لم أتم لحظة واحدة طول الليل.. هذه الكلاب التى تنبح طول الليل فى الشارع تحت العمارة،

أليس لها أصحاب؟! هل هي مطلقة في الشوارع هكذا طول الليل لكي تحرم سكان الحى من النوم؟ ومع أن عمارتكم إلى جوار قسم البوليس مباشرة، فإذا لم يكن السكان يستطيعون شيئاً تجاه هذه الكلاب، أفلا يستطيع البوليس شيئاً؟! فى إنجلترا - كما أظنك تعرف - لا يوجد كلب بدون صاحب، ومع ذلك فهناك فرق خاصة تجوب الشوارع طوال اليوم، فإذا وجدت كلباً وحده وليس معه أحد، أو ليس مع أحد - وذلك شيء نادر جداً - فهي تأخذه إلى حظيرة الكلاب فى منطقة (باترسى) حيث تحتفظ به لمدة أسبوع واحد، أسبوع واحد فقط لا غير، فإذا لم يطالب به أحد، أو لم يتقدم لشراؤه أحد، فإنه يُعطى حقنة خاصة تميته فى ثوان، ويتم التخلص منه.. وهذه الطريقة يتم إعدام ١٦٠ ألف كلب فى السنة فى كل أنحاء إنجلترا، مع أننا - الإنجليز - شعب يحب الكلاب جداً إلى درجة الهوس.. لكننى هنا فى مصر على كثرة بيوت الأصدقاء التى زرتها معكم لم أجد بيتاً واحداً يقتنى كلباً، وكل الكلاب عندكم مطلقة السراح فى الشوارع، تختفى بالنهار وتعقد مؤتمراتها فى الليل، لتنبح طول الليل تحت النوافذ والبلكونات، فى المناطق السكنية وكأنها تنتقم من السكان.. كل ليلة كنت أشعر بها فكنت أضع قطناً فى أذنى ثم أستغرق فى النوم من الإرهاق والتعب والدوران طول اليوم، لكنها الليلة كانت فظيعة ولم ينفع معها لا قطن، ولا تعب، ولا إرهاق.. قطعاً هناك حل ما لهذه المؤتمرات النابحة طوال الليل.. لكننى لو قضيت ليلة أخرى كهذه فسوف أعود إلى إنجلترا فوراً، لكى أكمل نومي هناك!!

كانت هذه هى «افتتاحية» اليوم.. ثم كان اليوم نفسه شديد الحرارة..

وعدنا من زيارتنا الثانية للأهرامات وأبى الهول لكى نجد المفاجأة رقم ٢ فى انتظارنا: عصابات بوابى العمارات فى القاهرة الآن أصبحت تكون «مافيا» لا ابتزاز السكان، وإرهابهم بوسائل أصبح كل السكان يعرفونها جيداً ومع ذلك فهم لا يستطيعون مقاومتها ولا يجدون لها حلاً.. أصبح البوابون الآن هم أسياد الموقف - بموافقة وتأييد و «مشاركة» أصحاب العمارات - وهم المتحكمون والقادرون على جعل السكان يرفعون أيديهم مستسلمين ويخرجون محفظة نقودهم ويسلمونها للبوابين صاغرين.

عدنا إلى البيت عصرًا بعد ليلة لم تنم فيها «مارجريت» من نباح الكلاب، ويوم فى صحراء الهرم فى عز الحر، لكى نجد المياه مقطوعة عن جناح العمارة الذى فيه شقتى و ٢٢ شقة أخرى.. وإعادة المياه إلى الشقق يتطلب سبائكًا، وإحضار السبائك يتطلب أن تدفع كل شقة ٨ جنيهات الآن حالاً وفوراً، وإلا فسوف تقضى بقية اليوم واللييلة وصباح غد - فى عز الحر هكذا - بدون مياه فى الشقق!! ويلم السادة البوابون ٢٠٠ جنيه فى خبطة واحدة من الـ ٢٣ شقة بحجة المياه المقطوعة والسبائك.. وتدفع صاغرين.. ويتكرر ذلك مع كل جناح من جناحى العمارة مرة كل أسبوعين أو ثلاثة على الأقل.. وليس هناك جهة ما رسمية فى البلد يلجأ السكان إليها من عسف وإرهاب وابتزاز البوابين ومن ورائهم أصحاب العمارات.

وأدفع صاغراً فعندى ضيفة أجنبية لا أريد أن ننفضح أمامها، ويدفع ٢٢ ساكنًا آخرين صاغرين.. ومع ذلك فلا تعود المياه قبل الساعة مساءً، حين يتم التحصيل من السكان المغلوبين على أمرهم، فيفتح السادة

البوابون المحبس الذى كانوا قد قفلوه.. هكذا !!

ثم كانت ثلاثة الأثافي.. فليلة كاملة لم تنم فيها «مارجريت» - التى تنام من العاشرة مساء عادة - ويوم فى صحراء الهرم فى عز الحر، ومياه مقطوعة لعدة ساعات بعد العودة إلى البيت، ثم: ضربة شمس عادت بها من صحراء الهرم جعلتها تفرغ كلِّها فى معدتها عدة مرات، وترقد سطيحة فى الفراش وهى لا تقوى حتى على البكاء، وتعتقد أنها سوف تموت فى مصر الآن حالاً وتدفن فى مقابر الصدقة، وهى مقابر مؤكد لا تتوفر فيها «الشروط الصحية» الكافية !!

واحتست أنا و «ثناء» ولم نعرف ماذا نفعل.. فكلانا لم ير بتجربة كهذه من قبل.. فاستجدنا بجارتينا فى الطابق العاشر: «إيلين» و «حياة».. اللتين صعدتا على الفور.. وكانت المياه قد عادت فأخذت «حياة» مارجريت إلى الحمام فى دش رائع؛ وعادت بها إلى الفراش لتجلس إلى جانبها تهدهدها وتلاعبها حتى خرجت «إيلين» من المطبخ وهى تحمل صينية عليها فرخة مسلوقة فى شوربة لسان العصفور.. وجلسا حول «مارجريت» فى الفراش تفحصان لها الفرخة وتطعمانها بأيديهما فى فمها كالأطفال الضغنين المرضى، حتى لمعت الدموع فى عينيها - الخضراوين الجميلتين - وقالت وهى تشرق بدموعها وبشورية لسان العصفور: «مرة أخرى هذا هو الفارق بيننا وبينكم.. العلاقات الأسرية عندنا مقطوعة تماماً.. وقد تتزوج البنت وتنسى أن تخبر والديها بذلك، وقد تهجر البنت من إنجلترا إلى أستراليا - مثلاً - ولا تذكر أن

تبلغ أسرتها بذلك إلا بعد سنة أو سنتين، وقد يخفى الولد من بيت أسرته فلا تلاحظ الأسرة ذلك غير بعد عدة شهور.. وإذا كان هكذا شكل علاقة الأسرة ببعضها عندنا، فإن شكل الصداقة قد فقد معناه أصلاً.. ليس هناك الصديق وقت الشدة A FRIEND IN NEED A FRIEND INDEED كما كان المثل الانجليزي يقول زمان.. حتى لقاء الأصدقاء - أو الصديقات - في بيوت بعضهم البعض أصبح مسألة نادرة الآن تماماً.. يلتقون في الـ «پب PUB» أو المشرب ليشربا كأساً أو كأسين ثم قد لا يلتقيان مرة أخرى بقية الأسبوع، وإذا اختفى أو اختفت واحدة من شلة الصديقات. ولم تذهب إلى الـ «پب PUB» في الموعد الأسبوعي، فلن يشغل واحد من بقية الشلة باله بأن يرفع سماعة التليفون ويتصل بها ليعرف ماذا حدث لها.. أصبح كل فرد الآن في أوروبا جزيرة منعزلة لا علاقة لها ببقية الجزر، بل ولا تهمها بقية الجزر عامت أو غرقت.. لذا تكثر حالات الانتحار في أوروبا الآن بين شبان وشابات صغيرات، لأنهم يشعرون ويشعرون بالوحدة الشديدة وبأن أحداً لا يأبه لهم.. ويترك العواجيز أبواب بيوتهم مفتوحة - أو على الأقل غير مغلقة بالمفتاح - حتى لا يموتوا وحدهم، والشقة مقفولة عليهم فلا يشعر بهم أحد.. وأظنك سمعت عن ممثل السينما الأمريكي الشهير «وليم هولدن» الذي مات في بيته، ولم يكتشفوا موته غير بعد ٤ أيام حين تخلف عن موعد عمل هام.. ومغنى (الروك أند رول) الشهير «ألفيس بريسلي» الذي مات بنفس الطريقة وعثروا على جثته في الصباح التالي - بالصدفة - بعد ساعات طويلة من موته..

وعادت تبكي من جديد وهي تقبل «ثناء» و «حياة» و «إيلين» وأنا
..

كان المفروض أن نساfer في الصباح التالى إلى «أبو سمبل» بالطائرة لنقضى نصف يوم هناك، ثم نعود على نفس الطائرة من «أبو سمبل» إلى أسوان لنقضى فيها يوماً واحداً تشاهد فيه «مارجريت» معالم أسوان الشهيرة: خزان أسوان، والسد العالى، ومعبد كلابشة، وقبر أغا خان، وجزيرة النباتات، وقبة «سدى على أبو الهوا» وقبائل البشارية، ونبيت ليلة واحدة في فندق (نيو كتاراكت)، ثم في اليوم التالى نستقل الباخرة النيلية. أو الفندق العائم لمدة ٤ أيام و ٤ ليالى بين أسوان وإدفو والأقصر، ونقضى في الأقصر يوماً واحداً أيضاً. تشاهد فيه معبد الأقصر ومعبد الكرنك وطريق الكباش، والبحيرة المقدسة، ووادى الملوك ووادى الملكات ومعبد الملكة الشهيرة «حتشبسوت» وقصر الأميرة «عين الحياة». ونبيت ليلة واحدة في فندق (ونتر بالاس)، ثم نركب القطار من الأقصر إلى القاهرة.. لكى تكون «مارجريت»-كسائحة - قد رأت أهم آثار مصر العليا، واستعملت ٣ وسائل انتقال في رحلة واحدة: الطائرة والباخرة النيلية والقطار.. وذلك طبعاً غير الفلوكة في أسوان وعربات الحنطور في الأقصر، والمعدية بين شرق النيل وغربه في الأقصر أيضاً..

كل ذلك ألقى الآن.. «مارجريت» بعد أن جربت ضربة الشمس في القاهرة في عز يونيو، رفضت تماماً أن تذهب جنوباً ولا خطوة واحدة: «وكمآن عايز تودينى أبو سمبل على بعد أكثر من ١٠٠٠ ميل جنوباً من

القاهرة؟! إذا كانت دماغى قد ساحت من شمس القاهرة فماذا سيحدث لى فى أبو سمبل وأسوان والأقصر؟! أنت تريد أن تتخلص منى قطعاً.. لن أتحرك من هنا خطوة واحدة جنوباً، لكن إذا كنت تريد أن تأخذنى شمالاً إلى الشاطئ وإلى البحر الأبيض فسأكون جاهزة بعد ١٠ دقائق!!

- اصبرى قليلاً ياسيدتى الجميلة، لم يأت دور الشاطئ بعد.. فغدا هو أول أيام عيد الأضحى المبارك، وقد دعانا بعض الأصدقاء لنقضى أول يوم العيد معهم لكى ترى شكل وتقاليد الاحتفال بالعيد على الطريقة الإسلامية المصرية.

كانت ضربة الشمس التى أصابت «مارجريت» أمس أهون كثيراً مما أصابها اليوم.. كنا مدعوين اليوم - أول أيام عيد الأضحى - للإفطار عند أسرة مصرية صديقة.. وطلبوا منا أن نكون عندهم قبل الساعة صباحاً، لكى ترى «مارجريت» مراسم الاحتفال بالعيد من بدايتها.. والذى دار بذهنى أنا شخصياً أن هذه «المراسم» هى صلاة العيد والتكبيرات و (الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، ربنا ولك الحمد) ثم الإفطار بالفتة بالخل والتوم واللحم المسلوق والمرق والمبار إلى آخر إفطار عيد الأضحى الذى كنت قد افتقدت طعمه - ولا أقول نسيته - بعد ١٦ عيد أضحى لم أشهدها فى مصر منذ تركتها إلى أميركا ثم انجلترا.

لكن الذى لم أكن أتصوره هو أن (هذه المراسم من البداية) - كما قالوا لى - سوف تؤدى إلى كارثة .. وحين جاءت مضيفتنا ربة البيت لكى تأخذ «مارجريت» من ذراعها تدعوها للذهاب معها إلى الحمام، لم

أفطن إلى سبب هذه الدعوة إلا بعد أن كان الوقت قد فات فعلاً.. وأنا أقفز من مقعدى جاريًا إلى الحمام لكي أحول دون وقوع الكارثة، كانت الكارثة قد وقعت فعلاً، وارتفع صراخ «مارجريت» الهيستيري يملأ الشقة كلها، والعمارة كلها، بفزع شديد وقد امتقع وجهها من الهلع والرعب وهي تشد شعرها الأحمر بعنف، وأنا أحاول أن أسحبها بعيدًا عن الحمام، حتى سقطت من طولها مغشيًا عليها.

وذعر الجزار وفر هاربًا وقد ظن أنه ربما لضعف بصره قد ذبح «شخصا» آخر غير الخروف.. وحين فتحت «مارجريت» عينيها صاحت: «هل قبضتم عليه؟».. «قبضنا على مين يا مارجريت؟».. «على ذلك المجرم الذى قتل ذلك الحمل المسكين».. «ليس مجرمًا إنه جزار، وليس حملًا إنه خروف».. وشرحت لها بهدوء وبالراحة فكرة التضحية بخروف العيد و: «وأنت لست نباتية وتأكلين اللحم.. فهل تظنين أن اللحم الذى تأكلينه لحما صناعيًا مثلًا؟! لكنها انتظرت واقفة وأصرت على أن ننصرف فورًا من عند هؤلاء الناس الهمج البرابرة المتوحشين الذين يدعوننا لشاهد قتل خروف مسكين مهما كانت الأسباب».. «وكيف تظنينهم يذبحون الخرفان في أوروبا؟ هل يطلقون عليها الرصاص أو يعدمونها بالكهربائي؟».. «لكنها لا تذبح هكذا.. إنها تذبح بآلات خاصة تجعلها لا تشعر بالألم، ولا أراها وهي تذبح في حمام شقة هكذا وكأنكم ترتكبون جريمة قتل.. كيف تطلبون من أطفالكم أن يكونوا رقيقى المشاعر والأحاسيس وهم يشهدون هذا المنظر البشع مرة على الأقل كل عام؟ هل هؤلاء الأطفال سيرسمون قنًا أو يكتبون شعرا

أو يؤلفون موسيقى في يوم من الأيام»؟!

أربعة أيام بعدها و«مارجريت» لا تأكل اللحم وقد فقدت شهيتها أصلاً، وتشيع بوجهها إذا مررنا على محل جزار، وتلمع الدموع في عينيها - الخضراوين الجميلتين - إذا مررنا بخروف «لسه صاحى» وتربت على رأسه بحنان وحزن كأنما تواسيه في مصابه الفاجع.. حتى تصورت أنا أنها سوف تصبح نباتية من الآن إلى آخر يوم في حياتها.

بعد ٤ أيام كنا في سيدنا الحسين ليلاً، ومررنا على مطعم تفوح منه رائحة الكباب فتملاً المنطقة كلها وتخترق النفاشيش الجوعى الهفتانة.. فنظرت «مارجريت» إلى المطعم طويلاً ثم دون أن تدبر وجهها إلى ناحيتي سألتني بصوت خافت: «حسين.. تفكر الرستوان ده عنده كوفتا»؟!

وأكلت وحدها طن كفتة، على روح شهداء عيد الأضحى المبارك! انتهزت فرصة أن مارجريت قد عادت إليها ابتسامتها أخيراً، فرأيت أن أريها شيئاً آخر جديداً عليها تماماً لآتراه في أوروبا كلها.. فقد ظنت أن منطقة الأزهر وسيدنا الحسين، تسهر طول الليل لأسباب سياحية فقط.. ومنذ أن تعرفنا ببعض من ٨ سنوات وهى تقول لى دائماً: «أنت إنسان غريب وشاذ.. هل تظن أن هناك شخصاً آخر غيرك ممكن أن يكتفى بنوم ٣ أو ٤ ساعات في اليوم كله!! أنت مجنون وتنتحر بذلك، وتظن أنك تستمتع بيومك أكثر».. «يا سيدتى الجميلة أنت تنامين ٨ ساعات في اليوم على الأقل، ومع ذلك فأنا أكبر منك بخمس سنوات ولم أمت بعد، وصحى زى الحديد.. ولست أنا وحدى هكذا، لكن المصريين كلهم ناس (سهيرة)

يعشقون السهر للصبح.. ناس يعشقون الحياة ويعيشونها».. ولم تصدقني حتى جاءت إلى مصر. ورأت بعينيها - الخضراوين الجميلتين - الأصدقاء يسهرون عندي ونسهر عندهم حتى الثالثة والرابعة صباحاً.. ثم شهدت - وسهرت - في الأزهر وسيدنا الحسين عدة مرات.. ولما كنت في كل مرة نفكر فيها في السهر في القاهرة القديمة أخذها إلى سيدنا الحسين، فقد ظنت هي أنه الحى الوحيد الذى يسهر طول الليل في القاهرة..

الليلة بعد أن سهرنا في سيدنا الحسين، حتى قرب الثانية صباحاً قلت لها: «ياللاينا نذهب إلى مكان آخر».. وذهبتنا إلى السيدة زينب لكى نشرب عصير قصب من محل هناك.. لم يعجبها عصير القصب لأن حلاوته زاعقة، فشربت أنا الكوبين وشربت هي عصير برتقال.. ثم مشينا من جوار المدرسة الستية إلى حى الناصرية.. وانبهرت «مارجريت» للمنظر الخارجى لـ (حمام السوق) الذى لازال باقياً حتى الآن.. وشرحت لها فكرته فقالت إنها نفس الفكرة التى تطورت لتصبح الـ (ساونا) الآن.. وانبهرت مرة أخرى حين رأت كل محلات ودكاكين الحى فاتحة طول الليل هكذا - الثانية بعد منتصف الليل - والمقاهى مليئة بالناس طول الليل هكذا. والصياح المنغم للجرسون البلدى ذى الجلاية والطاقيّة والمريلة وصينية الطلبات على يد واحدة وفيها عشرات الأكواب من كل صنف ولون: قهوة، شاي، ينسون، حلبة، جنزبيل، كراوية قرفة.. والأطفال يلعبون الكرة الشراب في الشوارع في ذلك الوقت المتأخر من الليل، والستات والبنات رايمين جايين في الشوارع في أمان واطمئنان تماماً، بعكس الفكرة التى كانت عند «مارجريت» من أن المرأة المصرية

لا تخرج من باب بيتها بعد غروب الشمس، حتى لا يختطفها أحد أو يعتدى عليها أحد.. ومحلات الفكهانية والفاكهة المروضة تلالاً تضوى من النظافة تحت أضواء الكلوبات، وعربات باعة التين الشوكى وعربات البطاطة المشوية، وعربات الكبدة والكباب والكشوى بشكلها المميز، ثم عربات البليلة وحمص الشام، والبخار يتصاعد منها جميعاً.. وتختلط الروائح الشهية لتداعب النفاشيش مرة أخرى لكن «مارجريت» كانت قد امتلأت بالكفتة و - تانى - العين بصيرة والمعدة الأوروبية صغيرة لا تحتمل الرمرة التى تستوعبها المعدة المصرية المصفحة التى يمكن أن تتعشى ٣ مرات فى ليلة واحدة إذا كانت المسألة تستاهل!!

وفى ميدان عابدين أريتها قصر عابدين الذى كان «فاروق» آخر ملوك مصر يحكم منه، وأريتها البيت الذى عشت فيه أنا فى نفس الميدان لمدة سنتين ونصف فى أوائل الستينات.. ودهشت حين رأت الشقة التى كنت أسكنها مضاءة، وسألتنى: «هو فيه حد آخر سكن فى الشقة دى بعدك»؟! فقلت مندهشاً لدهشتها: «ياسلام.. أمال يعنى حايعملوها متحف؟!».. وأكملنا المشوار فى شارع محمد فريد أو عماد الدين لطفى نصل إلى منطقة المسارح، لترى المسارح وهى تنهى عروضها والجمهور يخرج منها ليملاً الشوارع فى ذلك الوقت المتأخر جداً من الليل أو المبكر جداً من الصباح، بينما كل المسارح ودور السينما فى لندن - وفى كل أوروبا - تنهى عروضها فى العاشرة والنصف مساءً على الأكثر، حتى يلحق روادها بوسائل المواصلات العامة - الأندرجراوند - والاوتوبيسات - ليعودوا إلى بيوتهم فى وقت مناسب، لأن اليوم التالى

يوم عمل، وعليهم أن يكونوا في مكاتبهم قبل التاسعة صباحاً.

لأنها ولدت وعاشت طفولتها وصباها في ضاحية (تشينجفورد) في أقصى شمال مدينة لندن، حيث هي أقرب إلى الريف منها إلى المدينة، ثم عاشت بعد ذلك ١١ سنة في أستراليا على حافة مدينة (ملبورن)، المدينة أمامها والريف وراءها.. لذا فقد كانت «مارجريت» مهتمة جداً وشغوفة جداً بأن ترى الريف المصرى.. ولما وعدتها بأن أرتب لها زيارة لمدينة بلبس التي عشت طفولتي فيها حتى سن الثامنة ثم لم أرها مرة أخرى إلا بعد ذلك بثلاثين سنة، قالت لى: «أريد أن أرى البيت الذى نشأت فيه، ومدرسة الأطفال والمدرسة الابتدائية اللتين كنت طفلاً ولداً صغيراً بهما.. لكننى أيضاً أريد أن أرى الريف نفسه وليست مدينة بلبس فقط»..

لى أصدقاء كثيرون في قرية قريبة من بلبس منذ دعانى المرحوم المهندس «شكرى أيوب» محافظ الشرقية الأسبق مرات عديدة لزيارة قريته (كفر أيوب سليمان) على بعد ٣ كيلو مترات من بلبس، وكنت فى كل زيارة ألتقى بشبان وشابات كفر أيوب فى قعدات دردشة حول الصحافة والفن والأدب والسفر إلى الخارج والحياة فى أوروبا.. «عادل عبد المقصود» الطالب بكلية اللغات والترجمة فى جامعة الأزهر هو سفير كفر أيوب عندى وسفيرى عندهم، ينقل لى أخبارهم وينقل لهم أخبارى بين كل لقاءين.. رتب «عادل» لنا أن نزرر مدينة بلبس لساعة واحدة، ثم نقضى بقية اليوم فى حقول كفر أيوب.

فى الصباح نزلنا من البيت عندى شلة من الأصدقاء وبنات الأسرة: مارجريت وأنا، وعزة، وثناء، وسيد، ومعنا دليلنا عادل.. «مارجريت»

تتلفت حولها طول الوقت، طول المسافة بين القاهرة وبلبيس - ٥٠ دقيقة - وتسأل عن كل شيء وتستفسر عن كل شيء: «كيف تكون هذه هى دلتا نهر النيل، وفيها كل هذه المناطق الصحراوية؟! حتى المنطقة التى فى حوض فرعى النيل ليست كلها مزروعة»!!

وصلنا إلى بلبيس.. المعالم التى كنت أعرفها وأتذكرها قد اختلفت تماماً أو «اختلفت» تماماً.. البيت الذى نشأت فيه هدم وبنيت مكانه عمارة كبيرة.. (روضة أطفال الأمريكان) لم يعد هناك روضة أطفال بهذا الاسم ولم يتذكر أحد مكانها وحين التقينا بواحد من جيلي ومعاصرى وسألناه قال إنه أبداً لم توجد فى مدينة بلبيس روضة أطفال بهذا الاسم!! بعض الناس يصرون على أنه ليس فى العالم دولة اسمها تشيكوسلوفاكيا ماداموا هم لم يسمعو عنها من قبل.. حتى مدرستى الابتدائية التى كانت المدرسة الابتدائية الوحيدة فى بلبيس فى ذلك الوقت (مدرسة بلبيس الابتدائية الأميرية) ضاعت فى زحام عشرات المدارس الابتدائية التى تملأ المدينة الصغيرة الآن.. لم أستطع أنا أن أتذكر اسم الشارع الذى كانت فيه المدرسة، ولم يستطع أحد أن يدلنى على أقدم مدرسة فى المدينة.. الشيء الوحيد الذى بقى فى موضعه هو مركز البوليس الذى كان أبى رئيسه. وخرجنا من بلبيس و«مارجريت» محبطة جداً، وأنا أشد منها إحباطاً، فقد ضاعت كل معالم وذكريات طفولتى بفعل الزمن الذى لا يبقى شيئاً على حاله.

بعد ٣ دقائق كنا فى كفر أيوب سليمان.. وجولة سريعة فى شوارع القرية التى خرج كل أطفالها يجرون وراءنا يتفرجون على «الست

الخواجاية».. وقد استنتجوا أن «مارجريت» هي «الخواجاية» بيننا، ربما لأن شعرها أحمر، وربما لأنها تتكلم لغة لا يفهمونها!!.. وشاهدت «مارجريت» كل شيء على الطبيعة بدون ترتيب.. يوم عادى من أيام القرية المصرية.. الفلاحات يجلسن أمام أفران الخبز ورائحة الخبز الفلاحى الشهى تملأ الجو حولهن.. رطنت «مارجريت» شيئاً للفلاحة الجميلة التى تجلس أمام الفرن، لم تفهمه الفلاحة طبعاً، لكنها بكرم شرقاوى أصيل مدت يدها لمارجريت برغيف لسه خارج من الفرن سخن ملهلب.. فراحت «مارجريت» تنقل الرغيف بين راحتيها وهى تصوو من سخونته، ولم ينبها منه إلا قطعة أو قسطين لأن «ثناء» و «عزة» خطفتا منها الرغيف، ونال كل واحد من المجموعة كلها نصيباً من الرغيف الواسع الطرى الساخن الشهى.. ورأت «مارجريت» جملاً يتمشى وحده فى شوارع القرية، ووقف الجمل مستكيناً و «مارجريت» ترفع ذراعها إلى أقصاه لكى تلمس بيدها رقبته حتى ألتقط لها صورة تذكارية معه.. وما أن التقطت الصورة وربت «مارجريت» بيدها على رقبته حتى فهم الجمل الذكى أن مهمته قد انتهت، فعاد يتمشى وحده من جديد.. لكنها حين رأت جاموسة سوداء ضخمة مربوطة فى وتد وهى تتناول غداءها واقتربت مارجريت منها فرفعت الجاموسة رأسها الكبير ونظرت إلى «مارجريت» بعينها السوداوين الواسعتين الجميلتين وخارت بما يشبه الغضب وكأنها تخشى أن تشاركها «مارجريت» غداءها، فاكثفت «مارجريت» بأن لوححت لها بيدها من بعيد وهى تقول لها: «هاللو».

وحين دخلنا فى الحقول والممرات الضيقة بين المزروعات، صاحت

«مارجريت» كطفلة صغيرة جذلة، وهى ترى حقول الذرة ثم القطن فالأرز مترامية على امتداد البصر وليست هناك أية مبانى فى طريقها.. هذا هو الريف ببساطته وسحره واتساعه..

ووصلنا إلى ماسورة ضخمة تعمل بـ (وابور) لسحب المياه الجوفية من باطن الأرض وتتدفق المياه بقوة وشدة من الماسورة الكبيرة لكى تصب فى قناة أو مجرى صغيرة تأخذ المياه المتدفقة لكى تروى بها الحقول.. وحاولت «ثناء» بحجمها الصغير جدًا الرشيق جدًا، المحنق جدًا أن تستند إلى الماسورة لكى تأخذ حفنة ماء بكفها إلى فمها، كما كنا نفعل ونحن أطفال حين نشرب من حنفيات المدرسة، لكن قوة دفع الماء الخارج من الماسورة الضخمة خبط «ثناء» فى وجهها ففقدت توازنها وسقطت بجسمها كله فى القناة الصغيرة التى تصب فيها الماسورة.. وانتشلناها بسرعة قبل أن يجرفها التيار بعيداً عنا وحد يلاقيها فيأخذها.. وخرجت وقد ابتل تماماً (السلوبيت) اليمى الذى كانت ترتديه، فالتصق بجسدها كله، فذكرتنى بمنظر المثلة الإيطالية «سيلفانا مانجانو» فى فيلم (مرارة الأرز) الذى شهدناه ١٥ مرة ونحن مراهقين ولازلنا نذكره حتى الآن.. وقطعاً شبان كفر أيوب الذين كانوا معنا سيظلون بقية عمرهم يتذكرون شكل «ثناء» و (السيلوبيت) المبتل ملتصق بجسدها.. لكن ضحكة «ثناء» العريضة المرححة المهيافة لم تختف من وجهها لحظة واحدة حتى وهى موشكة على الغرق فى (شبر ترعة).

ورأت مارجريت حمراً أبيض صغيراً يقف هادئاً على مقربة منا ينظر إلى ناحيتنا فى وداعة وكأنه يتفرج علينا.. فذهبت إليه تربت على رأسه

بود وحنان.. وفى اللحظة التالية كانت قد قفزت فوق ظهره والحمار مستسلم - ولا شك أنه سعيد - وقامت به «مارجريت» بتمشية رايحة جاية فى الغيط عدة مرات، وهى سعيدة جداً بأنها تركب حماراً لأول مرة فى حياتها.. وسألتنى وهى تنزل من فوق ظهره: «تفتكر الحمار الى زى ده . يساوى كام بالاسترلىنى».

وتفسحنا فى الحقول فترة طويلة، والشلة تزداد وتكبر طول الوقت، حتى حان موعد الغداء، فوجدنا تحت شجرة وارفة ظليلة طليقة كبيرة تحتها حصير مفروش.. وأكلت «مارجريت» غداء مختلفاً تماماً فى جو مختلف تماماً: البتاو الفلاحى الطرى الكبير + فطير مشلت + قشقة رايبة + جبنة قريش + مش أو جبنة قديمة، كان واضحاً أنها مش قديمة أوى، فلم يكن فيها «أشياء صاحية» ممكن أن تثير فزع «خواجابة» مش واخدة على وجود هذه «الأشياء المتحركة» فى صنف ما من أصناف الأكل.

وبعد الغداء جاء الأولاد بحبل من الليف ربطوه بين شجرتين متقاربتين ليكون مرجيحة فلاحى ظريفة جداً، اتسعت لها عينا «مارجريت» - الخضراوان الجميلتان - من الدهشة وشهقت وكادت أن يغمى عليها وهى ترى البنتين المصريت «ثناء» و«عزة» وهما تجلسان على مخدة صغيرة وضعت فى وسط هذا الحبل الليف لتتمرجحا بخفة ورشاقة.. وحين عرضت على «مارجريت» أن تتمرجح هى أيضاً رجعت خطوتين إلى الوراء، وقالت: «أبدا.. هذا الحبل لن يتحمل ثقل جسدى» قلت: «لقد تحمل ثناء» قلت: «إن ثناء فراشة رشيقة.. إننى أستطيع أن أحملها

بإصبعين فقط» قلت: «لقد تحمل عزة» قالت: «وعزة عصفورة مزقطة ليس إلا» قلت لها متحدياً: «وما رأيك في أنا؟» قالت بتحد: «أراهنك على كل ما في جيبى أن الشجرتين سوف تنخلعان من مكانها بمجرد أن تجلس أنت على هذه المرجيحة الحبلى».. فجلست وترجحت وعليت لفوق ونزلت لتحت، لكن لم يكن في جيب «مارجريت» إلا منديل، وكلينكس كمان.. لكنها كانت قد تشجعت، فوضعت نفسها في وسط المرجيحة وهي تنظر إلينا محذرة بنظرة صارمة جادة وكأنها تركب صاروخاً سوف ينطلق بها إلى الفضاء: «لا أحد يقترب منى.. دعوني أترجع وحدى دون أن يزقنى أحد».. وبدأت تقلد ما رأت «ثناء» و«عزة» تفعلانه، فدفعت بقدمها في الأرض فكادت أن تنكفىء على وجهها، ودفعت بقدمها في الأرض مرة أخرى فكادت أن تنقلب على ظهرها.. فرفعت قدميها من على الأرض قليلاً وطلبت من «ثناء» - أخفنا حجاً وأرشقنا. وأكثرنا أذباً وتهذيباً - أن تدفعها دفعة صغيرة: «دفعة صغيرة فقط يائساء.. فاهمة؟».. ودفعتها «ثناء» دفعة صغيرة فتأرجحت «مارجريت» في الهواء قليلاً، ثم دفعة صغيرة أخرى، ودفعة صغيرة ثالثة و«مارجريت» تضحك سعيدة فقد بدأت تتمرجح فعلاً.. لكن دفعة «ثناء» التالية أطاحت بمارجريت إلى أعلى، وهى تصرخ فزعا حتى ظننا أنها سوف تسقط من المرجيحة في القرية المجاورة.. لكنها عادت «من فوق» لكى تتلقاها «ثناء» بـ «دفعة ثانية قوية..» و«مارجريت» تصرخ و«ثناء» تدفع، «مارجريت» تصرخ و«ثناء» تدفع، حتى بدأت «مارجريت» تطمن وتنسبط وتنسجم من المرجيحة الحبلى، فبدأ صوت ضحكاتها «الانجليزية»

يجلجل في الفضاء حتى خشينا أن يأتي سكان القرى المجاورة على صوت ضحكاتها.. حتى اكتفت وشبعت مرجحة فصاحت بي وهي تومئ برأسها ناحية «ثناء»: «حسين.. إنزع هذه الفيشة الصغيرة اللعينة من الكهرباء.. كفاية كده».. ونزلت من على المرجيحة لكي تهجم على «ثناء» و.. تأخذها في حضنها وتقبلها.. فندمت أنا على أنني لم أتطوع لمرجحتها.. لكنني على أي حال قررت أنني في المرة التالية سوف أطلب من «ثناء» أن تترجحنى: «دعنا صغيرة ياثناء.. فاهمة»؟ ثم أنزل من على المرجيحة لأشكرها!!

وبعد الغداء والمرجحة ذهبت المجموعة كلها لصيد العصافير ببندقية الرش التي أحضرها «سيد محيي الدين» معه لكنه نسي أن يحضر معها «الرش».. بينما تمددت أنا و«مارجريت» على حصيرة في وسط الغيط في منطقة ظلية في غفوة نحو نصف ساعة، حتى عادت المجموعة إلينا مرة أخرى بعد أن فشلوا في خداع العصافير وتخويفها بالبندقية الفاضية لكي تستسلم دون قتال.. فجاءوا ليوقظونا من غفوة العصارى الظرفية لكي نذهب إلى النادي الثقافي في القرية، حيث ينتظرنا عدد كبير من شبان وبنات كفر أيوب الذين كنت قد تعرفت بهم وهن في زيارتي السابقة، لكي يحتفوا بنا ومارجريت.

وقرأ الطالب «محمد منصور» آيات من القرآن الكريم ليفتح اللقاء.. «مارجريت» تطرب لشيين باللغة العربية لا تفهم منها حرفاً، لكنها تنتشى لها كثيراً: القرآن الكريم وصوت أم كلثوم!!.. ثم ألقى «عادل عبد المقصود» كلمة باللغة الإنجليزية - وهو طالب متفوق في كلية

اللغات والترجمة ينجح مرة كل ٣ سنوات - رجب فيها بمارجريت بلغة إنجليزية سليمة تماماً حتى أن «مارجريت» قد فهمت منها ٤ أو ٥ كلمات.. وقال في كلمته يصف «مارجريت» بأنها THE BEAST LADY وهو يقصد THE BEST LADY فقلب المعنى من (أحسن سيدة) إلى (السيدة المتوحشة)!! ولم تضحك «مارجريت» لأنها ظنت أن «عادل» يعرفها جيداً.. وردت «مارجريت» على كلمة «عادل» وعلى ترحيب شبان وبنات القرية، بأنها تشعر الآن أن لها أسرة كبيرة وقرية تنتمى إليها في مصر ويسعددها أن تعود إليها مرة أخرى ومرات.

ووجه إليها البنات والشبان أسئلة عديدة كانت معظمها عن انطباعاتها عن زيارتها لمصر حتى الآن، وعن الحياة الإنجليزية، ثم عن الفن والرسم باعتبارها فنانة تشكيلية، وأستاذة في كلية الفنون الجميلة.. وعرض عليها ٣ من شباب القرية: محمد سليمان، وقدرى أنور، وعبد العزيز منصور، رسوماتهم التي أثارت دهشتها، وقالت إن مستواهم الفني لا يقل عن مستوى تلامذتها في كلية (بانت مارتن) للفنون الجميلة في (تشيرنج كروس) في لندن.. وأن كل واحد من الثلاثة أفضل من الآخر ولو استمروا في الرسم فسوف يكونون فنانين ممتازين فعلاً في المستقبل القريب، وسوف يموتون جوعاً لو تفرغوا للفن، لأن الفن الجيد في أي مكان في العالم لا يكفى صاحبه لأن يأكل ٣ وجبات في اليوم، ثم تباع لوحاته بملايين الجنيهات والدولارات بعد أن يكون هو قد مات من الجوع و«شبع» موتاً!!

ومن النادي الثقافي خرجنا في جولة ليلية في حواري القرية الضيقة،

أشبه بمظاهرة.. وظل عددا يتزايد مع كل خطوة بانضمام ناس جدد، حتى أصبحت القرية كلها تسير في المظاهرة الترحيبية.. وذهبنا لكي نشهد ليلة الحنة) لعروس من القرية، سوف تتزوج في اليوم التالي - الخميس - وصعدت «مارجريت» و«ثناء» و«عزة» ومعهن من بنات القرية «سهير مسعود» و«سماح منصور» لكي يباركن للعروس «إيمان» في غرفتها.. وأخذت أم العروس فستان الفرحة لكي تفرجه لمارجريت، لأن العروس لم تلبسه بعد.. سوف تلبسه في الغد..

وظلت هذه المظاهرة الصاخبة من شبان وبنات وأطفال القرية، تمشي في ركابنا حتى ركبنا السيارة مرة أخرى قرب العاشرة ليلاً لنعود إلى القاهرة.. فبكت الصغيرة «سامية» - ١٠ سنوات - التي كانت متعلقة بذراعى ومتأبطانى طول اليوم، بكت وهي تقول لى من بين دموعها: «أنا حيثكم خالص واتعلقت ببيكم خالص، أعمل إيه دلوقتى وانتم سايينى وماشين»!! فردت عليها «مارجريت» بالجملة التي كانت قد سمعتها من «سماح أنور» ولم تفهمها وقتها، ثم فهمتها فيما بعد وحفظتها كما هي باللغة العربية: «اكتبى لأمانة السعيد»!

الفصل السادس

حين كان إيجار البيت في مصر.. شلن !!

نبهت على مارجریت أمس ليلاً بالآ تعد الإفطار اليوم صباحاً لأننى سوف آخذها للإفطار خارج البيت.. كنت أريدها أن تتناول الإفطار فى معظم التابعى للقول والطعمية، باعتبار أنه أحد أشهر معالم مصر «الغذائية».. زمان كان ممكناً أن تدخل عند التابعى فتفطر: فول وطعمية وسلطة ٣ أصناف وتشبع. وتغلى بطنك، وتدفع ١٠ قروش وأنت خارج.. لكن لأنه لا شىء بقى على حاله فى مصر: وكل الناس فى مصر الآن تبتكر كل طريقة ممكنة لابتزازك ولكى تضع يدها فى جيبيك لتكبش منه أكثر فلوس ممكنة وتطلع تجرى، فقد اختلف النظام عند التابعى أيضاً.. الآن لم تعد تستطيع أن تفطر على مزاجك، فول فقط، أو طعمية فقط، أو تقرر نوع السلطة التى تريدها فتطلبها: سلطة خضراء، سلطة طحينة، بابا غنوج أو طرشى أو ليمون معصفر.. الآن: ذلك كله + بدنجان مقلى + بطاطس محمر + سلطات أخرى، يأتيك فى صينية واحدة متعددة

الخانات مثل صوانى الجيش والمعسكرات تدفع فيها نحو جنبيين.. وليس
 مهبها أنك تريد أن تفطر فول فقط أو طعمية فقط أو أنك لا تحب سلطة
 البابا غنوج ولا تأكل الطرشي لأسباب صحية، فكل هذه الاصناف
 أمامك الآن فى الصينية وقد دفعت ثمنها وخلص.. أكلتها فبأهلنا والشفاء،
 ما أكلتهاش أنت حر لكننا قبضنا ثمنها من جيب حضرتك وخلص.

واندهشت مارجرىت جدا من أننا ونحن لسه لم نجلس على مقاعدنا
 بعد كان الجرسون النشيط يرمى الصينيتين الحافلتين أمامنا ويطلع يجرى،
 حتى أنها سألتنى باستغراب: «وهم عرفوا إزاي إنت حاتطلب إيه»؟!
 فقلت مدارياً: «أصلى اتصلت بهم فى التليفون قبل أن ننزل من البيت»!!

ورغم ذلك فقد أعجبها الجو جداً والصخب داخل المطعم
 والجرسونات النظيفين النشطين رايمين جاينين بسرعة ونشاط بين الموائد
 يرفعون الصوانى الفارغة ويضعون أماكنها صوانى جديدة ويزغدون
 الزبائن الى خلصوا علشان يقوموا يمشوا، وزبائن داخله وزبائن خارجه
 طول الوقت.. كما انبسطت من شكل الصينية الحاشدة.. ثم ونحن
 خارجين بعد الإفطار قالت لى: «لكن تعرف.. برضه الكيك الى بيعمله
 الرستوران الثانى فى الشارع قدام الناس، طعمه ألد»!!

السيدة زينب فى طريقنا دائماً إلى مشاوير كثيرة.. اليوم كانت فى
 طريقنا إلى شارع قدرى باشا - وهو ليس قرييى - لكى نزور (متحف
 أندرسون) أو (بيت الكريديلية) الملاصق تماماً لمسجد أحمد بن طولون..
 وبيت الكريديلية متحف رائع غير عادى يعطى صورة كاملة لشكل

الحياة في مصر منذ ٥٠٠ سنة.. وقد كان بيتاً مهجوراً لعشرات السنين - لا أدري لماذا - حتى (اكتشفه) عام ١٩٣٥ الدكتور «أندرسون» الطبيب الإنجليزي في الجيش المصري.. فطلب من الحكومة المصرية أن تؤجره له، فأجرته له فعلاً بإيجار شهري قدره ستة قروش مصرية (نحو شلن إنجليزي بعملة ذلك الزمان حين كان الجنيه المصري أغلى من الجنيه الإنجليزي ، وبأقل من بنس واحد بعملة هذه الأيام!!).. وحول الدكتور «أندرسون» (بيت الكريدليه) إلى متحف من أجل المتاحف التي زرتها في حياتي، وكأنه أعاد الحياة إلى بيت مصري قديم من ٥٠٠ سنة لازال يعيش حتى الآن.

وكان ذلك هو رأي «مارجريت» أيضاً التي انبهرت إنبهاراً عظيماً بكل مآثره في المتحف حتى كادت أن تبكي من التأثر «الفني» وهى تتخيل شكل الحياة المصرية اليومية، وشكل الأسرة المصرية التي كانت تعيش في هذا البيت منذ ٥٠٠ سنة مضت.. في البيت قاعة كانت تقام فيها الأفراح وحفلات الزفاف.. وعلت الابتسامة شفقتنا معاً ونحن نستمع إلى دليلنا يشرح لنا لماذا كان الكرسي المخصص للعروس عريضاً وكبيراً وواسعاً ومتيناً، بينما الكرسي المخصص للعريس صغيراً وعادياً، فقال إن جمال العروس في تلك الأيام كان يقاس بـ «حجمها»، وكلما كانت العروس ثقيلة الوزن كبيرة (المساحة) مترامية الأطراف كان ذلك دليلاً على أنها بنت عز ومن بيت كرم ومتغذية كويس!!

المدھش أنني عشت معظم سنوات طفولتي وصباى و مطلع شبابى حتى تخرجت واشتغلت مهندساً ثم صحفياً، فى حى السيدة زينب، ومرت على

مسجد ابن طولون وعلى (متحف أندرسون) هذا آلاف المرات دون أن يخطر على بالى مرة واحدة أن أدخله، ثم أدخله الآن مع «مارجريت» لأول مرة فى حياقي بعد أن عزلت من السيدة زينب بثلاثين سنة.. وفى تصورى - الآن - أنه يجب على كل مثقف مصرى. أو مهتم بالتاريخ المصرى، أو حتى طلبة المدارس والجامعات عمومًا، أن يزوروا هذا البيت لكى يعرفوا كيف كان شكل الحياة فى البيوت المصرية زمان منذ عدة مئات - قريبة - من السنين.

مهما كانت سعادة «مارجريت» وانبهارها بما تشاهده وتراه، فإنها لا تنسى أبدًا موعد الغداء.. وما أن تنظر فى ساعتها حتى أعرف أن موعد الغداء قد حان.. وكان فى ترتيبى فعلاً لليوم أن آخذها للغداء عند أشهر (حاق) أو كبابجى فى حى السيدة زينب.. وهو مطعم على قدر ذاكرتى - القوية - بدأ كمسمط يبيع لزبائنه لحمه الرأس والكرشة والفشة والطحال والمبار، ثم تحول إلى كبابجى.. وفى الحالتين كان مطعمًا نظيفًا جيدًا ممتازًا، وإن كنت لم أدخله منذ سنوات بعيدة.

قالت «مارجريت» ونحن نجلس إلى مائدتنا فى المطعم الفاخر جدًا جدًا من الداخل، الذى كان مفاجأة لى أنا شخصيًا، أنها تشعر أنها فى دار للأوبرا فى أى عاصمة من غواصم العالم، بالأعمدة المستديرة العالية والنقوش فى أعلاها، والستائر الشيك جدًا ذات اللون البيج الفاتح الهادئ تحجب الرؤية خارج المطعم وتحجب أيضًا الزبائن عن المارة فى الشارع.. الموائد المستديرة ذات المفارش شديدة النظافة والكراسى المذهبة ذات الظهور العالية.. وأطعم المائدة: الأطباق الصينى الفاخرة،

والملاعق والشوك والسكاكين من الطراز القديم، والقوط في حلقها الفضية.. كل ذلك يعطى عبقا خاصا وفخامة شرقية رصينة.. حتى أن «مارجريت» عادت لتقول: «تعرف أن الجو هنا يذكرني تمامًا بمطعم (مكسيم) الشهير في باريس، إلا في شيء واحد، هو أن مطعم (مكسيم) مزدحم دائما، بينما كنا نحن الزبائن الوحيدين في مكسيم السيدة زينب في ذلك الوقت من اليوم - قبل الثانية ظهراً -.. كما أعجبتها جدا (النيقة) التي تطلبها باستمرار الآن بعد أن كانت قد سمعت عنها كثيراً من كل أصدقائها الإنجليز الذين زاروا مصر قبلاً.. واحدة من صديقاتها استحلقتها أن تأكل طبقاً من النيقة زيادة باسم هذه الصديقة.. لكن الذى أشك فيه كثيراً هو أن تلك الصديقة كانت تعنى أن أدفع أنا ثمن هذا الطبق الزيادة الذى كلفني ثمانية جينيات كاملة.. لكن بالهنا والشفأ طبعاً..

مارجريت معجبة جدا - كرسامة وكفنانة - بالحياة التي يموج بها شارع السد البرافى الذى فيه ضريح السيدة زينب.. وبما أننا - بعد الغداء - كنا قريبين جدا منه فقد أرادت أن تمشى فيه قليلاً.. كانت في زيارتنا السابقة لضريح السيدة زينب قد لفتت نظرها (شحاتة) شابة زى القمر ذات عينين سوداوين واسعتين جميلتين مكحلتين.. وونحن نسير اليوم في شارع السد وجدت «مارجريت» الشحاتة الجميلة جالسة في مكانها المعتاد، فابتسمت لها وحيثها بود قائلة: Hello, how are you فقالت لى الشحاتة مخضوضة: «أنا عملت لها حاجة دلوقتى يابيه؟» فقلت لها مطمئنا: «أبدا.. دى افكرتك، فبتقول لك إزيك».. فطلعت الشحاتة تجرى ورانا وهى تزغرط حتى اختفينا عن نظرها.

صديقتي مذيعة التلفزيون «هناء مصطفى» عازمانا الليلة لحضور فرح مصرى يقام فى فندق (النيل هيلتون).. طول عمرى لا أحب زينة الأفراح وأكره حضورها وأشعر بالضيق الشديد إذا اضطرت لحضور فرح ما .. حتى أفراح أخوتى لم أحضرها - لأننى كنت خارج مصر وقتها!! - والفرح الوحيد الذى حضرته - مضطراً - كان فرحى أنا شخصياً!! وإن كنت لا أذكر الآن هذا الفرح كان بمناسبة إيه: زواجى أم طلاقى!!

لذا فقد طلبت من «هناء مصطفى» أن نكتفى بمشاهدة الزفة المصرية فى الهيلتون الليلة، ثم نخرج لنكمل السهرة فى مكان آخر.. وذهبت أنا و «مارجريت» إلى الهيلتون ليلاً لكى نحضر الزفة من بدايتها.. وفى زحمة الزفة والفرح تنها عن «هناء» فلم نلتق، لكننا حضرنا الزفة على أى حال.. ولأن الأفراح الإنجليزية ليس فيها غناء ولا رقص ولازفة، إنما بعد الكنيسة يتوجه العروسان ومدعويهما إلى مطعم أو نادى يكون محجوزاً مسبقاً فيتناولون العشاء جميعاً على مائدة واحدة طويلة، أو على مجموعة موائد صغيرة متفرقة، وقد يحدث - وقد لا يحدث - أن يرقص المدعوون معاً كآى سهرة عادية..

لذا فقد فزعت «مارجريت» لصوت الدفوف العالى جداً جداً الذى يخرج طبلية الأذن، وكأن (المطباتية) يريدون أن تسمعهم القاهرة كلها وليس المدعوون هنا فقط، والغناء العالى جداً جداً، وكأنه صريخ أو صوات وليس غناء.. وبمجموعة الراقصات يرقصن بطريقة أوتوماتيكية وبسرعة وقوام قوام كأن هناك ١٥ زفة أخرى تنتظرهن فى آخر مصر

الجديدة.. وبعض بنات الأسرة - أسرة العروس أو أسرة العريس - لا يعجبهن رقص الراقصات المستعجلات، فيقتحن الحلقة بفسانيتهن العادية ليرقصن رقصاً والله أجمل كثيراً وأرق كثيراً وأثوى كثيراً عن رقص هؤلاء الستات المستعجلات.. ولكن..

كنت قد لاحظته من أول لحظة بدأت فيها الزفة.. لفتت «مارجريت» نظري إليه لتكوينه العام وملامح وجهه وتسريحة شعره وحتى (الشيب) في فوديه، أنه يشبه كثيراً إلى حد التطابق رئيس جمهورية الأرجنتين «كارلوس منعم».. لكن كارلوس منعم المصرى الليلة كان يحاول أن يبدو وكأنه ينظم الزفة، فيقف في مقدمة الصف ويختار المنطقة المليئة بالفتيات والسيدات المتفرجات فيقف في وسطهن ويفرد ذراعيه إلى جانبيه بطولهما، وكأنه (يوسع) لضاربى الطبول، لكن ليلمس بذراعيه، ويديه صدور السيدات والفتيات وهن مندجحات مع الزفة و (مش واخدين بالهم).. لكننى أنا كنت واخدبالي منه. وأراقبه وأنا مفردس جداً منه.. لذا فحين التقط بعينه «مارجريت» شعرها الأحمر المميز انتقل على الفور الى المنطقة التى تقف فيها، وضبط نفسه بحيث أنه حينما يفرد ذراعيه تكون «مارجريت» هى هدفه «المباشر».. لكنه لفرط «اندماجه» لم يلاحظنى إلى جوارها، لذا فما أن فرد ذراعيه حتى وجد أن يده تلمسنى أنا بعد أن وضعت نفسى بينه وبين «مارجريت»!! وكلما غير وضعه وجدنى سادد عليه السكة.. فما كان منه إلا أن مال على أذنى وهمس لى بحدة أن أبتعد قليلاً!!! فشخطت فيه بصوت عالى - رغم ارتفاع دقات الدفوف - بأن يخرس ويتحرك بعيداً وإلا طرقتة على قفاه قدام الناس

كلها في وسط الفرح.. وناولته - على سبيل العينة - زغداً قوياً بكوعى
 جعله ينثنى كرقم ٦ وهو ينظر إلى مندهشا وكأننى مجنون!
 وترك المكان كله وانتقل إلى منطقة أخرى يمارس فيها نشاطه
 «الاجتماعى»!!

جارتى الطيبة رنت لى جرس التليفون بعد منتصف الليل لتقول لى :
 «وحشتونا.. بقالنا كام يوم ما شفناكمش.. نيجى لكم نقعد معاكم
 شوية؟».. «ياألف أهلاً وسهلاً».. منذ أن سكنت فى شقتى فى هذه العمارة
 من ٢٨ سنة وأنا أحب هذه الأسرة كلها: الزوج - الذى أصبح مرحوماً
 الآن منذ عدة سنوات - والزوجة شديدة الطيبة والركة والوداعة، والابنة
 الوحيدة التى كانت طفلة ظفنة زى القمر فى سنواتها الأولى، وأصبحت
 الآن شابة حسناء دلوعة وشخلوعة وزى القمر برضه.. وتوطدت العلاقة
 بيننا أكثر كثيراً بعد وفاة المرحوم حتى أننا أصبحنا وكأننا أسرة واحدة،
 وكلما كنت فى مصر لا يمر يوم إلا وهما - الأم والابنة - عندى أو أنا
 عندهما.. أشعر تماماً كما لو كانتا أختى وبنت أختى.

وصعدت «إيلين» و«حياة» لتسهرأ معنا فى فراندق الكبيرة..
 «حياة» تطرطش شوية كلمات إنجليزى من هنا وهناك.. أما «إيلين»
 فهى لا تتكلم إلا اللغة العربية باللهجة الصعيدية جداً لأنها - رغم أنها
 يونانية الأصل - إلا أنها من مواليد (جنا) - قنا - ومصرة على
 الاحتفاظ بهويتها الصعيدية.. ظريفة جداً «إيلين» وأحبت «مارجريت»
 كثيراً.. لذا فعندما تجلسان معاً تكونان متآلفتين تماماً، وتسمع منها أظرف
 حوار ممكن أن يدور بين اثنتين ستات: «إيلين» تكلم «مارجريت» باللغة

العربية الصعيدية وهى تعوج لسانها بلكنة بطريقة (تشرى كالب) ظنا منها أن ذلك يكفى لكى تفهمها «مارجريت»: إچييك (إزيك) يا اختى؟ كويشة؟.. و «مارجريت» تكلم «إيلين» بانجليزية سليمة جداً وواضحة جداً وبطيئة جداً وهى تضغط على مخارج الألفاظ ظناً منها أن «إيلين» سوف تفهمها بهذه الطريقة.. والاثنتين (جيتو مبسوط كثير) «حياة» مغرقة فى الضحك على شكلها معاً، وبين حين وآخر تدخل لترجم بينهما: «ياماما مش كده.. ماما عايزة تقول....» وترجم فتقول شيئاً مختلفاً تماماً عما قالته مامتها وعما قالته «مارجريت»!! وأنا الوحيد المستمتع فى هذه الزحمة كلها، ربما لأننى مش فاهم حاجة أبداً من الثلاثة. مدعوان أنا ومارجريت اليوم للغداء فى جريدة الأهرام.. صديقى الصحفى الشاب - لأننا من سن بعض تقريباً.. هو أكبر منى بـ ١٥ سنة فقط - «عبده مباشر» وزوجته الألمانية «بيرى» يدعوانى للغداء أو العشاء كلما كنت فى مصر، ربما لأننا أصدقاء عمر، وربما لأننا إحنا الثلاثة (شراقوة).. أنا و «عبده» من محافظة الشرقية، وزوجته «بيرى» من ألمانيا الشرقية!!

أثناء الغداء فى مطعم جريدة الأهرام دارت المناقشة حول مدى تجاوب الأجنيبيات مع شكل الحياة فى مصر.. الألمانية تعيش فى مصر منذ ٢٢ سنة والإنجليزية من أقل من ٢٠ يوماً.. المدهش أننى فى كل مرة رأيت فيها «بيرى» وجدت أنها سعيدة جداً بحياتها فى مصر، وأن «مارجريت» حتى الآن كل ما رأته فى مصر قد أعجبها بشدة - (باستثناء البوابين والمياه المقطوعة وضربة الشمس وذبح الخرفان فى حمامات البيوت)!! - إلا أن

كلتيها قد اتفقتا من أول المناقشة على أن الحياة في مصر ليست مريحة بالنسبة للمرأة الأجنبية!! ولم أقال ذلك أن شعرت بالضيق لرأيها هذا، وقلت لمارجريت ونحن في طريق عودتنا إلى البيت: «على أى حال فإن يرى قد تكون مضطرة إلى البقاء في مصر وترك ترف ألمانيا (الشرقية) لارتباطها بزوج وبابنة شابة.. لكن الحمد لله أنك لست مضطرة وستعودين إلى إنجلترا بعد أن تنتهى إجازتك خلال أيام.. فمبروك عليك جنة إنجلترا ونعيمها».

بعد منتصف الليل يرن جرس التليفون في البيت عندى ويأتينى صوت صديقتى العزيزة مذيعة التليفزيون «هناء مصطفى»: «حسين.. عندى مفاجأة لكم.. لما شفت إن مارجريت يمكن تكون شبعث من القاهرة وتلاقيها بدأت تشعر بالملل، حجزت لكم شاليه في العريش - على حسابى - لمدة خمسة أيام.. إيه رأيكم؟ تروحوا؟! صيف لم يكن على البال، ولا على الخاطر، ولا كان في البرنامج أساساً..

- تروحي يا مزميزيل؟
- أروح يا خالو..
- تروحي يا مارجريت؟
- فين «الأريش» دى؟
- على البحر الأبيض..
- أبيض بنى كحلى أصفر مش مهم.. أروح أى حطة فيها بحر..
- محتاجه لأجازة من الأجازة!
- ورحنا...

الفصل السابع

ضابطات بوليس مستوردات!

من تحت العمارة في ميدان رمسيس ركبنا تاكسى (بالنفر) من القاهرة إلى العريش.. في الأيام العادية وفي الأحوال العادية، يتقاضى التاكسى المرسيدس الفاخر ثمانية جنيهات عن نفر.. لكن الدنيا صيف أولاً، وشكلنا واضح أننا لسنا من أهالى العريش، ومعنى حسناوان واحدة منها خواجاية، فيبقى رايجين نصيف.. لذا أصر سائق التاكسى المهكع جداً - التاكسى هو المهكع جداً وليس السائق - على أن يتقاضى منى ٣٠ جنيهاً وليس ٢٤ جنيهاً فقط.. وماله، إشمعنى ده اللى مش حايسرق يعنى.. جينا على سواق تاكسى وحانتشطر!

أذهب إلى العريش لأول مرة منذ ٢٤ سنة.. آخر مرة كنت هناك كانت قبل حرب يونيو ١٩٦٧ بأيام قلائل.. بنت أختى رغم أنها مدرسة لغة إنجليزية قد الدنيا وتعرف تعد من واحد لعشرة بالانجليزى دون أن تخطئ، إلا أنها سألتنى: «مش العريش دى اللى عند دير سانت كاترين

ياخالو»؟! فزغرت لها لكي تخرس، وحمدت ربنا أنها سألتني باللغة العربية حتى لا نتفصح أمام الأجانب.. أما «مارجريت» فأول مرة في حياتها تذهب إلى سيناء.. انبسطت جداً من منظر الصحراء الممتدة أمامها على مرمى البصر بلا نهاية، ومن شكل (المعدية) عند عبورنا قناة السويس بالعرض من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي، ونحن قاعدون داخل السيارة، بعد أن عبرتها - «مارجريت» - مرتين بالطول من بورسعيد إلى السويس عند سفرها إلى أستراليا، بعد تخرجها من كلية (ويلسدن) للفنون الجميلة في لندن وذهابها للعمل كرسامة في ملبورن، ثم عبرتها مرة أخرى بعد ذلك بـ ١١ سنة من السويس إلى بورسعيد وهي عائدة من أستراليا في طريقها إلى إيطاليا حيث عملت لمدة سنتين أخيرين.

وتذكرني مارجريت بأني كنت قد حكيت لها أنني في نفس الفترة التي عبرت فيها هي قناة السويس في طريقها إلى أستراليا، كنت أنا أيضاً، قد تخرجت في نفس السنة وعينت مهندساً في إحدى شركات البترول في السويس - قبل اشتغالي بالصحافة - وكنت أقضي معظم أوقات فراغي ساعات طويلة جالساً على (دكة) حجرية على شاطئ بورتوفيق، أرقب قوافل السفن التي تمر أمامي خارجة أو داخلة من وإلى بوغاز السويس من وإلى البحر الأحمر.. وتتصور «مارجريت» - ربما لأنها فنانة وخيالها واسع - أنني لا بد وأني كنت جالساً أرقب السفينة التي كانت هي عليها في طريقها إلى أستراليا، لأنها هي نفسها كانت طول فترة عبور السفينة لقناة السويس تقف مستندة إلى حاجز السفينة ترقب الشاطئ المصري.. فلا بد وأني قد رأيتها يومها دون أن نكون نعرف أننا يوماً ما بعد ٢٠

سنة، سوف نلتقى في أمريكا ثم في إنجلترا ونصبح صديقين حميمين هكذا..
فسألتها ببرود: «كنت لابسة فستان لونه إيه يومها؟»..

وصلنا العريش بعد خمس ساعات.. وبسهولة جداً اهتدينا إلى مصيف
التليفزيون وإلى شاليه (وسام) الذى حددته لى «هناء مصطفى».. وبعد ٣
دقائق بالضبط كانت البنتان - «مارجريت» وبنت أختى - تغطسان
وتقبان فى مياه البحر الأبيض.. من أول لحظة اتبملت «مارجريت» على
منظر البحر الأبيض الذى يطل عليه الشاليه مباشرة على بعد أقل من
٣٠ متراً رمال ونخيل.

كان إسمه زمان (شاطئ النخيل) - مثل (پالم بيتش) فى ميامى فى
فلوريدا - والمنطقة اسمها (المساعدى).. وكنت قد سألت مرة عن حكاية
إسم (المساعدى) فشرحوه لى ببساطة جداً: المساء عيد.. وتحولت باللهجة
العرايشى إلى المساء عيد. ثم انضغطت فى كلمة واحدة لتصبح: المساعدى.
وبعد أن شبت الآنستان غطساً وقبقة فى البحر الأبيض خرجتا
تجريان من البحر وقد قرصها الجوع.. فذهبنا كلنا إلى مدينة العريش
نفسها على بعد حوالى ٤ كيلو مترات لكى نشترى ما نأكل به الثلاثة
والنملية فى الشاليه للأيام الخمسة التى سنقضها هنا: للإفطار فقط.. فإن
كلا من الحسناوين، قد أعلنتا العصيان المدنى وقررنا عدم التعامل مع
مطبخ الشاليه إلا لعمل الشاى فقط: «هو احنا جاينين نصيف وننفسح
ونشم الهوا، والا جاينين نضيع الخمس أيام فى الطبخ وتحضير السفرة
وغسيل الأطباق والمواعين.. نتغدى ونتعشى برة ياخالو، وكل واحدة منا
مستعدة تساهم فى المصاريف».. وأخرجت «ثناء» من كيسها قرش تعريفة

تذكرى تحتفظ به للذكرى والتاريخ منذ إلغاء المليم والتعريف.. فسألتها «مارجريت»: «قد إيه ده يا ثناء؟» قالت ثناء: «حوالى ربع بنس» فقالت «مارجريت» على الفور: «خلاص.. يبقى ده لينا إحنا الاثنين!»
كرما أوى الستات دول..

وقضينا الليلة كلها سهراتين جالسين على رمل الشاطئ، وماء البحر يغسل أقدامنا فى الراحية والجاية، وضوء القمر يغمر وجوهنا بلونه الفضى، ونحن نتكلم همساً كأننا لا نريد أن نخدش شكل اللوحة الطبيعية الرائعة التى نعيش لحظاتها الآن.. وحين بدأت أضواء الفجر تنبلج من بعيد قالت مارجريت شيئاً غريباً: «تعرف يا حسين ما الذى أتمناه الآن؟ أتمنى أن غوت الآن فى هذه اللحظة، وندفن معاً فى هذه البقعة الساحرة»!! فقلت لها: «معلش إسبقينى إنت وأنا أبقي أحصلك يعبدين.. لسه عندى شوية حاجات لازم أخلصها قبل ما اموت».. فزعلت الست لأننى أفسدت شاعرية اللحظة..

ستات هبل..

نزلنا فى الصباح إلى مدينة العريش مرة أخرى لكى نتفرج عليها على راحتنا فى ضوء النهار.. مهما اتسعت العريش فهى لا تزيد عن قرية كبيرة.. نفطر فول وطعمية فى مطعم شعبى فى شارع السوق الرئيسى فى العريش.. منظر الشعر الأحمر واللغة الانجليزية لم يعد يلفت نظر العرايشية الذين اعتادوا إما على وجود السياح فى العريش بشكل دائم على امتداد السنة، أو وجود الإسرائيليين الذين احتلوا العريش مرتين

عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧.. لكن «مارجريت» هي التي أعلنت سعادتها الشديدة: بأنها الآن على أرض سيناء، التي لم تكن تحلم برويتها في يوم من الأيام. والتي كانت تنزعج بشدة كلما سمعت عن أن هناك حرباً تدور على أرضها أو أن قوات إسرائيل قد احتلتها، لأنها ترى أن سيناء أرضا مقدسة.

الحسناوتان لا تريدان أن تخرجا من البحر.. كان الغداء ساندوتشات سريعة حتى تعودا إلى البحر مرة أخرى.. على اعتبار أننا سوف نخرج مساء للعشاء في نادى ضباط الشرطة الذى مررنا عليه صباحاً ورأينا على بابهِ لوحة كبيرة بأنه يرحب بالضيوف المصطافين.. وطبعاً هذه الدعوة كانت تنطبق علينا، فنحن ضيوف ومصطافون.. لكننا حين ذهبنا إلى النادى في المساء اكتشفنا أن النادى قعدته ظريفة جداً فعلاً، وراقية ومحترمة فعلاً، لكنه لا يقدم إلا الغداء فقط وليس العشاء!!.. لذا فبعد قعدة سريعة قمنا من جديد نبحث عن مكان آخر نتعشى فيه.

مررنا على فندق اسمه (النورس) له حديقة كبيرة جميلة، فدخلنا لنتعشى فيه.. لكن مدير الفندق الشاب «عبد المحسن» قال لنا أن الفندق لم يفتتح بعد لذا فهو لا يقدم شيئاً على الإطلاق، حتى أنه هو شخصياً لم يتناول عشاءه منذ ٣ أيام، وأنه أرسل إلى أهله في منيا القمح لكي يرسلوا له (زودة) وإلا حايموت من الجوع في هذا الفندق.. ونصحنا بأن نذهب إلى فندق (أوبروى) غير بعيد عن مكاننا الآن، فهو المكان الوحيد الذى تجد فيه أكلًا في هذه الساعة المتأخرة جدًا من الليل في العريش.. الثامنة مساءً!!.

وذهبنا فعلا إلى فندق (أوبروى). وفي مطعمه الفاخر الذى يطل على البحر مباشرة تناولنا عشاء رائعا، وتعرفت «مارجريت» على (السمان) لأول مرة فى حياتها، والتهمت منه سمانتين بحالهما.. وسهرنا وانبسطنا ثم تمشينا عائدين إلى الشاليه، والصحراء والنخيل يغمرهما ضوء القمر على يسارنا، والبحر الأبيض كسبيكة رائعة من الفضة هائلة المساحة على يميننا.. جو شاعرى تمامًا.. لكن بمجرد دخولنا الشاليه سألتنى «مارجريت» - وهى أروبة جدًا فيما يتعلق بمسائل الحسابات والفلوس: «إنت راجعت فاتورة الرستوران فى أوبروى؟! قلت لها: «لا.. أراجعها ليه؟» قالت: «وربى كده» فأعطيتها الفاتورة فراجعتها بدقة ثم قالت فى انتصار: «لقد توقعت ذلك.. غالطوك فى الحساب يا مسترى قدرى ودفعوك ١٨ جنيهًا زيادة عن طلبات لم نطلبها ولم تجبء لمائدتنا.. ماذا ستفعل الآن؟! قلت لها: «سأتصل بوزير السياحة بمجرد عودتنا إلى القاهرة» قالت: تحلف؟! قلت: «أحلف».

وصمت ٣ أيام.. حاعكننى على نفسى ليه؟! ويبقى لى فى ذمة وزير السياحة ١٨ جنيهًا.

لكننا من اليوم التالى أصبحنا زبائن مستديمين فى نادى ضباط الشرطة.. وأصبح الجرسونات العساكر يبتهجون لرؤية «مارجريت» ويحيونها هى و«ثناء» ولا يحيوننى أنا.. لعلهم ظنوها ضابطات شرطة مستوردات وارد بريطانيا أو من السوق الحرة.. أطباق «مارجريت» المفضلة الآن هى السمان والأرز بالخلطة وسلطة الطحينة.. وتأكل بنفس

وشهية مفتوحة على مصراعيها حتى أنها هي نفسها مندهشة من ذلك وتقول إنها عمرها ما أكلت بهذه الكميات ولا هذه الشهية ولا هذه النفس المفتوحة..

فرحانة جداً هي بالبحر وبقربه الشديد من الشاليه، لذا فهي طول الوقت رايحة جاية بين الشاليه والبحر تبلل قدميها وساقها وتجلس على الرمال على حافة الماء حتى تأتي الموجة فتغمرها كلها حتى صدرها لكي تكتسب اللون البرونزي وتعود به إلى إنجلترا، لكي تكيد زميلاتها بأنها قد صيفت على شاطئ البحر الأبيض في مصر.. شعرها الأحمر وفستان البلاج عارى الظهر حتى وسطها يلفت نظر جيراننا أهل الشاليهات المجاورة، اللاتي ترتدى المتحررات منهن فساتين بأكمام طويلة، وذيل مخرج على الأرض، ينزلن بها إلى البحر لكي تكتسب الفساتين اللون البرونزي الجميل!!

مارجريت تستيقظ من الفجر وتجري إلى البحر بالمايوه لكي تكون على راحتها دون أن تخدش مشاعر جيراننا في الشاليهات المجاورة.. لكن جارتنا في الشاليه الملاصق لنا انهبر للشعر الأحمر الذي يراه لأول مرة في حياته فيما يبدو، فحاول جاهداً أن يلفت نظرها.. لذا فهو يصحو مبكراً هو الآخر وينتظرها على الشاطئ، وهو يلبس نظارة الغوص التي لا يخلعها أبداً ويقف على الشاطئ تيهها فخوراً نافساً عضلاته، لكنه يجري مرعوباً إذا جاءت الموجة إلى ناحيته.. وسرعان ما توطدت الصداقة بينه وبين «مارجريت» وراحت تلاغيه ويلاغيها ويقضيان وقتاً طويلاً معاً.. لكن حين تطورت المسألة إلى الأحضان والقبلات - وكنت أراقبهما من

بعد حتى لا يلاحظنى هو - سحبت كاميرتى وصورتها معا و (الإيد فى الإيد) حتى أمسك عليها دليل خيانتى مع شاب فى الرابعة من عمره.. فقد احتاج هذه الصور فى يوم ما !!.

حكى لى اليوم أن زميلة لها حين عرفت بأن «مارجريت» قادمة إلى مصر لتقضى أجازتها فى ضيافتى، حكى لها - وكأنها تحذرنا - بأن صديقة لها إنجليزية تزوجت فى لندن من شاب مغربى وعاشت معه فى إنجلترا فترة.. وكان قد حكى لها أنه من أسرة مغربية غنية جداً، وأنه يمتلك فى المغرب قصرًا وسيارات وخبولاً وخدمًا وحشًا، وأقنعها بأن تذهب معه إلى وطنه فى أجازة.. فلما ذهبت فوجئت بأنه بدوى يعيش مع أسرته كلها (زوجتين غيرها و٩ أطفال) + الغنم والبهم، فى خيمة واحدة!! وطبعى ألا يكون فى هذه الخيمة لا دش ولا بانيو ولا حمام ولا تواليت ولا ماء جارى!! وحبسها فى هذه الخيمة تحت الحراسة لا تغادرها حتى استطاعت الهرب والعودة إلى إنجلترا لتحكى قصتها للصحف الإنجليزية!!

أتصور أن زميلتها كانت تريد أن تقول لمارجريت بشكل غير مباشر أو حتى تحذرنا وتنبهنا بشكل مباشر، من أنها ينتظرنا نفس المصير.. لذا فقد سألت أنا «مارجريت» إن كانت وهى على الطائرة فى طريقها من لندن إلى القاهرة، قد تصورت أن شيئاً كهذا ممكن أن يحدث لها؟ فقالت: «مش بالضبط، لكننى حين لم أجده فى انتظارى تحت الطائرة فى مطار القاهرة كما وعدتنى، ووقفت فى طابور الجوازات نحو ١٠ دقائق دون أن تظهر، توقعت أسوأ الفروض، وقررت فى نفسى أننى إذا لم أجد أحداً من طرفك فى انتظارى خارج المطار، أحداً أعرفه وأكون قد رأيته من قبل فى

لندن، مثل سعاد حسين أو سماح أو أنور عبد الله أو أشرف، فإننى لن أغادر المطار إلا بعد أن أتصل بالسفارة الإنجليزية لأعرف منها إيه حكايتك بالضبط.. ثم أعود إلى إنجلترا فوراً على أول طائرة ممكنة إذا لم تستطع السفارة الإنجليزية أن تهتدى إليك أو تدلنى على أخبارك».

سألته: «والآن»؟

قالت بالعربية: «الهمدو لله» ثم استطردت بالانجليزية: «وعندما أعود إلى لندن سأقول لزميلتى أن صديقتها الإنجليزية هذه صعلوكه وقعت على صعلوك، والطيور على أمثالها تقع».

«مارجريت» من الآن تحلم - وتلح - فى أن نذهب إلى الاسكندرية التى سمعت عنها كثيراً منى ومن «سعاد حسين» ورأتها وتعرفها من على الخريطة - الإسكندرية طبعاً، وليست سعاد حسين - ومهمة بأن تعرف كم تبعد عن القاهرة وفى كم من الوقت نصل إليها بعد أن نترك القاهرة!؟ وسعدت جداً حين عرفت بأننا نقطع المسافة فى ساعتين تقريباً سواء بالقطار أو بالسيارة..

الإسكندرية فى برنامجنا فعلاً، لكن فى الأسبوع القادم.

سنعود من العريش إلى القاهرة غداً.. وأردت أن نعود بالأوتوبيس (السوبر جيت) على اعتبار أننا سوف نذهب إلى الإسكندرية بالقطار (الترينى) ونعود بسيارة خاصة فتكون «مارجريت» قد ركبت كل وسائل المواصلات الممكنة فى مصر.

ذهبت إلى محطة الأوتوبيسات الرئيسية فى العريش لكى أحجز تذاكر

العودة.. ولأننى أحجز لنفسي (نصف تذكرة) ببطاقتي الصحفية فقد عرف ناظر المحطة أننى صحفى، وأراد - كثر خيره - أن يجامل الصحافة بأن يسهل لنا الأمور، فسألنى عن موقع الشاليه الذى ننزل فيه، وطلب منى ألا نعب أنفسنا بنقل حقائبنا من الشاليه لغاية محطة الأوتوبيس الرئيسية - ٤ كيلومترات تقريبا - وأنه سيعطى تعليماته لسائق الأوتوبيس بأن يتوقف أمام الشاليه لكى نركب من هناك.. كثر خيره.. كرم وأريحية مصرية غير مستغربة.. وحدث ذلك بالفعل فى اليوم التالى، لكن ما حدث «بعد ذلك» لا بد وأن أحكيه بالتفصيل، عسى أن يقع عليه نظر أحد من المسئولين عن السياحة فى البلد.

توقف الأوتوبيس أمام الشاليه ونزلت منه فتاة جميلة ترحب بنا «أهلاً وسهلاً يا أفندم».. «أهلاً بيكى ياست الحسن».. ووضعنا حقائبنا فى مخزن العفش وركبنا الأوتوبيس.. فاخر جدا ومريح جدا وهادئ جدا..

بمجرد أن جلسنا فى مقاعدنا جاءت الفتاة الجميلة تسألنى فى أدب شديد وبابتسامة واسعة: «حاذوا إيه؟» سألت «مارجريت» فقالت: «سفن آف» وسألت «ثناء» فقالت: «مش حاخذ حاجة.. حانام» وغطست فى مقعدها المريح وراحت فى نوم عميق.. فقلت للمضيفه الحسنة: «سفن آف».. وذهبت الحسنة، وعادت ومعها زجاجتا (السفن آف) فتحتهما وأعطت لى واحدة، ولمارجريت واحدة.. ثم ذهبت وعادت مرة أخرى لكى تضع على «حجر» كل منا صينية صغيرة من البلاستيك الخفيف فيها قطع صغيرة من أشياء متناثرة: قطعة كيك صغيرة، قطعة بيتزا صغيرة جداً، باكو فيه بسكويتتين، كيس تشيبسى صغير.. وتركتها

على حجرنا ومشيت.. فظننت - ساذجا - أن هذه الصينية وزجاجتى الـ (السفن أب) تحب مع تذكرة الأوتوبيس مثل الوجبة والمشروبات التى تقدم على الطائرة، ورفعت رأسى شامخاً أمام «مارجريت» التى ترى بنفسها الآن مدى تقدما فى الخدمة السبع وتطورنا بها.. لكننا كنا لسه متغدين حالاً غداء حافلاً فى نادى ضباط الشرطة فى العريش، وليس فى معدتنا أى مكان لشيء آخر، لذا فقد أخذت «مارجريت» الصينيتين من على حجرى وحجرتها ووضعتهما معاً فى شنطتها دون أن نمد أيدينا فيهما.. ولكن.

قبل وصول الأوتوبيس إلى محطته النهائية فى ميدان رمسيس بالقاهرة جاءت المضيفة أو الجرسونة الحسنة لكى تطلب منى سبعة جنيهات ثمناً لهذه الفتافيت التى رمتها على حجرنا وطلعت تجرى زى بتوع النعناع فى تراموايات القاهرة زمان!!.. ووجدت نفسى موروطاً أمام «مارجريت»، لكننى لم أشأ أن أبوظ فكرتها عن الخدمة السياحية فى بلدنا وأحوها إلى «الابتزاز السياحى» العلى.. فأعطيت للجرسونة عشرة جنيهات فأعادت إلى جنبها واحداً وتلكأت قليلاً متوقعة أن أقول لها (تخلى الباقي علشانها) كبشيش، فلما لم أفعل أعطتني جنبها آخر وهى متأففة ومتضررة وعلامات الاشمئط تبدو على وجهها الجميل.. وبرضه تلكأت مرة أخرى فلما لم أقل لها تخلى الجنيه الباقي علشانها سألتني بسداغة: «هى الصينية كان فيها كيس تشيبس والا لا؟» فقلت: «أيوه كان فيها كيس تشيبس» فقالت ببرود وهى تعطينى ظهرها وتنصرف: «يبقى خلاص، كده مضبوط»!!.. يعنى أكون قد دفعت ثمانية جنيهات فى مقابل

زجاجتى سفن آف !!

ولم أستطع أن أسكت أكثر من ذلك ولتذهب سمعنا السياحية في ستين داهية إذا لم أرفض - كصحفى على الأقل - هذه السرقة العلى.. فنادت مشرف الأوتوبيس أو الكمسارى وسألته: «هل البوفيه الى فى الأوتوبيس تابع للشركة نفسها والا قطاع خاص»؟! فقال وهو يرفع حاجباً ويخفض حاجباً كفريد شوقى فى أفلامه القديمة: «قطاع خاص، بتسأل ليه»؟ قلت له إننى صحفى وإننى طلبت زجاجتى سفن آف فقط لا غير ولم أطلب شيئاً آخر، فهل أنا مضطر ومجبور على أن أدفع ٨ جنيهات ثمننا لزجاجتين سفن آف؟! أريد أن أعرف هل هذه الجنيهات الثمانية التى دفعتها سوف تدخل خزينة الشركة الليلة أم ستدخل خزينة حد آخر؟ لأننى سوف أتصل غداً صباحاً برئيس مجلس إدارة شركة الأوتوبيس وأحكى له عن هذا الابتزاز - إذا لم يكن يعرفه فعلاً - لكى ينهى عقد الذى أو التى - (فقد اتضح أنها «التى») - تدير هذا البوفيه ويطردها لأنها تسرق الركاب علناً، أو أن يفقد هو منصبه كرئيس مجلس إدارة الشركة لأنه لو كان يعرف بما يحدث فى أوتوبيساته وسأكت وراضى فهو إذن يشتغل لحساب البوفيه وليس لحساب الدولة التى تمتلك شركة الأوتوبيس هذه !!

وذهب مشرف الأوتوبيس وتكلم مع الجرسونة فنظرت إلى ناحيتى وقد امتنع وجهها - الجميل - واختفت ابتسامتها - الجميلة - لكنها لم تفعل شيئاً.. فناديتها وطلبت منها فاتورة بالمبلغ الذى دفعته، تبين فيها أننى طلبت ٢ سفن آف فقط.. فقالت لى وهى مرعوبة إنها ليست لديها فواتير،

ولم يحدث أبدًا على امتداد الأربع شهور التي عملت فيها في هذا (المنصب) أن طالبها أحد من الركاب بفاتورة من قبل.. فطلبت منها أن ترفي (قائمة الأسعار) المعتمدة من الشركة أو من وزارة السياحة التي تحاسب الركاب على أساسها.. فقالت إنها ليست لديها قائمة أسعار ولم يحدث من قبل أن طالبها أحد من الركاب بقائمة الأسعار.. فسألتها: «والراكب يعرف منين إن الأسعار اللي بيدفعها لك هي الأسعار المضبوطة وأنتك لا تسرقينه سواء لحسابك أنت شخصيا، أو لحساب المعلمة التي تدير هذا البوفيه.. (وكنت قد عرفت من مشرف الأوتوبيس أن التي تمتلك وتدير بوفيهات أوتوبيسات الشركة كلها واحدة ست قال هو عنها: المعلمة!! ياترى تقرب لمن بالضبط هذه المعلمة)؟!.. واستطردت أكلّم الجرسونة الحسنة ممتقة الوجه: «على العموم فعدًا صباحًا سأصل برئيس مجلس إدارة شركة الأوتوبيس وأطلب منه يشوف إيه حكاية المعلمة بتاعتكم دى بالضبط.. وسأصل بوزير السياحة علشان الوزارة تحاسبكم على الأسعار دى القديم والجديد من يوم حصولكم على عقد بوفيهات أوتوبيسات الشركة».

فاعتذرت الجرسونة الحسنة بأن هذه هي غلطتها هي، وأنها هي التي سوف تعاقب وسوف تفقد وظيفتها بسببها، وأنها لسه متعينة جديد من أربعة شهور فقط!! ومش عارفة النظام بالضبط، وأنها كانت تظن أنه بما أن المسافة بين العريش والقاهرة طويلة فإننى «قد» أحتاج إلى هذا الأكل!! فقلت لها إننى لم أطلب منها أكلًا، وإنما طلبت زجاجتى سقن أب فقط، ثم: هل سعر هذه الصينية بالفتافيت اللي عليها أربعة جنيهاات؟!.

فقلت إنها فى الحقيقة ليست متأكدة بالضبط من الأسعار، وإنما هى تقدرها هكذا بتقديرها الشخصى!! فسألته مندهشاً: «ورصيد تقديرك الشخصى ده بيروح للمعلمة صاحبة البوفيه كل يوم وهى راضية به وموافقة عليه من غير ما تقول لك إن ده كثير، أو يمكن ده قليل»؟

فمدت الجرسونة - الجميلة - يدها بثمانية جنيهات أعطتها لى.. فسألته عن ثمن زجاجتى الـ(سثن أب)؟ فمدت يدها مرة أخرى وأخذت من يدى ١٢٠ قرشاً.. وكانت يد «مارجريت» أسرع منها وهى تعيد إليها الصينيتين، اللتين ستكونان قطعاً من نصيب راكب آخر سوف يدفع صاغراً ٨ جنيهات-وربما أكثر - لأنه ليس صحفياً وليس طويل اللسان مثلى.. أو ربما لأنه سيخشى البهذلة والتهمزء حين يرى فريد شوقى الأوتوبيس يرفع له حاجباً وينزل حاجباً!!

ورغم أن حصيلة مارجريت من اللغة العربية لاتزيد عن ٣ كلمات: صباه الهير - الهمدو لله - سلامو أليكم.. إلا أنها حكّت لى - بالإنجليزية طبعاً - كل الحوار الذى دار بينى وبين فريد شوقى الأوتوبيس أولاً، ثم حوارى مع لىلى علوى البوفيه ثانياً - وكأنها كانت تستمع إليه من جهاز ترجمة فورية.. وانبسطت - هى - جداً من أننى قد أعدت الأمور إلى نصابها وأوقفت عملية الابتزاز هذه، وقالت لى: «ماذا كنت سأفعل أنا كأجنبية عن البلد لو كنت وحدى»؟ فقلت لها: «نفس ما كان يمكن أن يفعله - أو الأدق أن أقول «ألا يفعله»-أى واحد من الركاب المصريين لا يكون جريئاً وسليط اللسان وقوى الجسم بحيث

لا يخشى من تلعب حواجب فريد شوقى ولا ينكسف من حلاوة ليلي
علوى»..

ولم تفهم «مارجریت» شيئاً طبعاً..

لكنها فى الصباح التالى وهى توقظنا من النوم بصينية الشاى والإفطار
قالت لى: «ما تنساش تكلم النهارده وزير السياحة» فقلت مندهشا وكان
الموضوع كله قد طار من دماغى: «أكلم وزير السياحة ليه»؟! قالت:
«علشان تقول له عن فريد شوقى وليلى علوى - (فقد ظنت أنها
الاسمين الحقيقيين لمشرف الأوتوبيس وجرسونة البوفيه) - وكمان
ماتنساش تقول له عن الـ ١٨ جنيه بتوع رستوران فندق أوبروى»!!

الفصل الثامن

أطول لسان في أفريقيا!!

حسبتها مارجريت على أصابع يديها: «إذا كنا سوف نذهب إلى الإسكندرية غدًا لمدة خمسة أيام، فإننا سوف نعود إلى القاهرة في اليوم السادس لساعات قليلة، لأنني في صباح اليوم السابع سأكون على الطائرة في طريق عودتي إلى لندن.. إذن فالיום هو آخر فرصة لي لأتجول مرة أخيرة في شوارع القاهرة، جولة الوداع.. قيام.. البسا.. سننزل الآن حالاً».

ديكتاتورة هذه السيدة، وقطعا كان نفسها تطلع شاويش في الجيش البريطاني لكنها ما جابتش مجموع.. قمنا ولبسنا ونزلنا في آخر جولة لها في شوارع القاهرة التي أحببتها كثيراً.. وأصبحت تعرف ميدان (التحرير) وشارع (سوليمان باشا) و (كصر النيل) وشواربي ومحطة المترو (أهيد أورابي) وميدان رمسيس.

قبل أن ننزل من البيت عدت جنيهاتها الإسترلينية التي جاءت بها

معها من لندن، قالت باندهاش : « هذه هي أرخص أجازة صيف قمت بها في حياتي.. إنني أكاد لم أنفق شيئاً » قلت لها مشاكساً : « كوني دقيقة في كلامك.. قولي إنك (لم تنفقي شيئاً).. قالت : « نناء وعدتني بأنها سوف تغير لي ١٠ جنيهات إسترلينية بـ ٥٥ جنيهًا مصريًا سوف أنفقها كلها عن آخرها اليوم.. وإذا فاض منها شيء فسأشتري لكما چيلاتي على حسابي».

اشترت جلابية منقوشة مدندشة من جلابيب كرداسة قالت إنها سوف تذهب بها إلى مرسمها في شارع (كنجز رود) في حي (تشيلسي) أغني وأرقى وأعلى أحياء لندن.. وشارع (كنجز رود) هو شارع المواد والتقاليع وعلى رصيفه طول اليوم عرض أزياء مستمر تقدمه أشيك وأجل وأغني بنات لندن، يرتدين أعبط ما يمكن أن تلبسه بنت أوروبية، ومع ذلك فهو لا يبق عليهن جدًّا ولاد الإايه، أو الأصح أن نقول (بنات الإايه).. ليس هلاهيل، وليس مقطعًا ومهربدًا فهذه موضة ولاد الإايه الثانين.

اشترت أيضًا كل الأشياء التي كانت قد جربتها لأول مرة وأعجبتهها خلال زيارتها لمصر: اشترت (لسان العصفور) الذي ذاقته مرة واحدة حين أصابتها ضربة شمس فطبخت لها «إيلين» فرخة مسلوقة بشوربة لسان العصفور، فظنته «مارجريت» نوعًا من الدواء اللذيذ موصوفًا لضربة الشمس، فاشترت منه كيسين أتصور أنها سوف تضعهما في أجزاخانة بيتها في لندن.. اشترت أيضًا علبة ملبن لـ: قطتها!! قالت أن قطتها تحب الملبن.. أول مرة في حياتي أسمع أن القطط بتاكل ملبن..

اشترت كمية توابل مصرية كانت قد رأت مثلها في مطبخ البيت عندى، أنا متأكد تمامًا أنها لن تعرف كيفية استخدامها في طبخ الأكل. اشترت كمية (كعب غزال).. وهو فطير صغير جدًا محشو بالعجوة أعجبها اسمه قبل أن يعجبها طعمه.. أرادت أن تشتري كمية (كيك مصرية) - المطعمية التى وقعت فى غرامها ولن تسلاها أبدًا - لكننى أقنعتها بأن تؤجل الطعمية إلى آخر يوم قبل سفرها حتى تأخذها معها طازجة، وليست بايئة لمدة ٧ أيام!

ونحن فى شارع شواربى نظرت فجأة إلى ساعتها وقالت بخبث ورثته لا شك عن أجدادها الأوائل الذين كانوا يهودًا قبل اختراع الإنجليز: «مش إحنا دلوقتى فى شارع كصر النيل؟ يعنى قرييين من بيت أخوك.. تعالى نروح نفاجتهم، نسلم عليهم وأودعهم، ونتعشى عندهم!!» الست دى لو قعدت فى مصر شهر واحد كمان حاتبقى ألعن من المصريين..

أعجبها بيت «أحمد فؤاد» أخى الأكبر أكثر من بيتى.. قالت إن بيتى أوروبى زيادة عن اللزوم، ويكاد يكون نسخة مكبرة من بيتى فى لندن.. لكن بيت أخى مصرى أكثر وشرقى أكثر.

هللت لها «مديحة» زوجة أخى، وزا طت وفرحت بها «هدى» ابنة أخى لأنها أحببتها كثيرًا.. وأخذتها «مديحة» - كما تنطق اسمها - معها إلى المطبخ وعادت وفى يدها صينية فيها طبق بامية ورغيف عيشى بلدى!! وغمست البامية بإيدها بالعيش كما رأتنا نفعل، ومزمت بها حتى جهز العشاء، فتعشت معنا مرة أخرى.. بعد العشاء شربت كوبين من عصير

الفراولة حتى كادت أن يغمى عليها من النشوة والسعادة.. لا أظن أن كثيراً من السياح يكون عندهم الفرصة التي كانت عند «مارجريت» لترى شكل الحياة المصرية اليومية داخل البيت المصري العادي، مثل بيتي وبيت أخى وبقية بيوت الأسرة والأصدقاء التي زارتها معنا.

وجاء يوم السفر إلى الإسكندرية.. أعجبت مارجريت كثيراً بالقطار التربيني وقالت إنه لا يقل عن خطوط السكك الحديدية الإنجليزية الشهيرة (إنتر سیتی) ذات اللون الأصفر المميز.. أعجبها كثيراً كذلك الغداء الذي تناولناه في مقاعدنا في القطار دون أن نحتاج إلى أن ننقل إلى عربة الأكل.. فقد كان الغداء وجبة كاملة مطهوة جيداً، ورخيصة جداً سواء حسبناها بالعمل المصرية أو بالإسترليني.. فبالإسترليني لا يتجاوز ثمنها جنيهًا واحدًا.. وقالت إن وجبة مثلها في قطارات إنجلترا لن تقل عن ١٥ جنيهًا.. إسترليني طبعًا.

إنبسطت جدًا من منظر الحقول الخضراء الممتدة على الجانبين على امتداد البصر طوال المسافة بين القاهرة والإسكندرية.. هي مثل كل الأوروبيين تحب الزرع وتعشق اللون الأخضر.

على يميننا في الجانب الآخر من العربة أسرة عربية لم أستطع أن أعرف على جنسيتها من لكنتها العربية: سيدة جميلة شابة بين الخامسة والثلاثين والأربعين، ومعها أورطة أطفال من مختلف الأعمار.. سبعة أو ثمانية أطفال من سن ١٤ ونازل.. كادت أن تحتكر بوفيه القطار لحسابها طوال الوقت، والـ ٢ ترولي المخصصين لخدمة العربة كلها كانا يادوب رايمين جاين ومش ملاحقين على طلبات السيدة الشابة التي بين الخامسة

والثلاثين والأربعين!! المدهش أن الأطفال لم يكونوا هم يطلبون شيئاً، لكن السيدة هى التى كانت تلح وتضغط وتتوسل، ثم فى النهاية تشخط وتأمّر، ليأكلوا هذا ويشربوا ذاك.. والأطفال يأكلون ويشربون مضطرين مرغمين.. ويأكلون من الحاجة نصفها ويشربون من الزجاجة ربعها، ثم يتركونها.. والسيدة تبدو وكأنها تريد أن يرى كل ركاب العربة قد إيه هى غنية ومعها فلوس.

«مارجريت» لم ترفع عينيه عن هذه السيدة وفرقتها طوال الوقت.. ثم مالت علىّ لتهمس فى أذنى: «أتمنى أن أستطيع أن أقرأ بنفسى ماذا سوف تكتبه عن هذه المرأة السمينه التى تبدو محدثة نعمة وجديدة على الثراء.. سوف تكتب عنها أليس كذلك؟».

لكن قبل أن أرد عليها كانت مفاجأة جديدة تطب علينا.. سيدة أجنبية، بطة بضة بيضاء قاربت الستين لازالت بها مسحة من جمال قديم غابر.. كانت تجلس على بعد ٣ أو ٤ صفوف من مكاننا فى مواجهتنا بحيث ترانا ونراها.. شكلها المندش زيادة عن اللزوم يوحى بأنها - ولو أنها أجنبية - إلا أنها بلدى جدا والثراء شىء جديد عليها.. طول الوقت وهى تراقبنا ولا ترفع عينيه عنا وكأنها تحاول أن تصطاد عينينا بنظراتها.. حتى التقت عيناي بعينيها فعلاً فابتسمت لى ابتسامة واسعة، فبادلتها ابتسامتها وهزّت لها رأسى، فعلى الفور تركت مكانها فى عربة القطار وجاءت لتجلس فى المقعد الخالى أمامنا بجوار «ثناء» لكى تسألنا بالإنجليزية بلكنة أجنبية: هل التقينا فى مكان ما قبل ذلك؟ لأنها تشعر أن وجوهنا مألوفة لديها، وأنها ممكن أن تكون قد رأتنا فى أى مكان فى

العالم، لأنها تقضى معظم شهور السنة تتجول في العالم منذ وفاة زوجها دون أن ينجبا أولادًا.. هزت «مارجريت» رأسها نفيا وقالت للسيدة إنها لا تذكر أنها رأتها من قبل.. وقلت أنا للسيدة إن الدنيا قد أصبحت صغيرة ومجتمعات أن نكون قد التقينا في أى مكان في العالم ولم نتكلم لكننا نتذكر وجوه بعض.. وأننى على أى حال سعيد بمعرفتها.. سألتنا هل نحن سياح؟ فقلت لها «مارجريت» إنها إنجليزية تزور مصر الأول مرة، وإن مستر قدرى - اللى هو أنا - مصرى لكنه يعيش في إنجلترا في الوقت الحالى بحكم عمله.

وفوجئت بالسيدة وقد علت وجهها فجأة علامات الاشمئساط والقنصرة والكبرياء وهى تقول لى: «مصرى؟! لقد ظننتك إيطاليا.. لقد عشت طفولتى هنا، وكان أبى واحداً من عشرات اليونانيين المليونيرات في مصر، ثم تركناها إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا.. المصريون ناس سيئون جداً.. لقد كنا نسكن في قصر فخم في الموسيقى - هكذا!! - وكان لدينا سيارات وعربات تجرها الخيول، وعشرات من الخدم والعبيد كلهم مصريون.. وكان أبى يضربهم بالكرباج كل يوم.. فلما قامت الثورة في مصر سرق الخدم والعبيد المصريون كل شيء حتى السيارات والخيول.. لقد كنت صغيرة ولا أذكر كل التفاصيل، لكننى أجيء إلى مصر بين حين وآخر لأحاول أن أبحث عن قصرنا القديم في الموسيقى فلا أجده!!

فقلت لها على الفور: «حين قامت الثورة في مصر ياسيدى لم يكن عمرك أقل من ٥٠ سنة.. لذا فأنت قطعاً تتذكرين جيداً أنه لم يكن قصرنا في الموسيقى لكنه كان غرفة فوق السطوح في السكاكينى أو الظاهر أو

جزيرة بدران أو الترعة البولاقية أودرب البرابرة أوحارة اليهود... والمليونيرات اليونانيين الذين يتحدثون عنهم كانوا كلهم جرسونات في المقاهى والبارات والخمارات في القاهرة والأرياف، والكويس فيهم كان فاتح دكان بقاله جريجي، وكانوا جميعهم كوستا وبنى وماريو وخرالمبو.. وكانت ستاتهم اليونانيات كمريرات ودادات وخادمات في بيوت الأعيان المصريين.. وبناتهم اليونانيات الجميلات منهن كن كومبارس في السينما في مصر، أوراقتات عند بديعة مصابني وبيا عز الدين وصفية حلمي، وغير الجميلات كن بائعات في شيكوريل وشملا وسمعان صيدناوى وعمر أفندى وأوريكو واسكندر أثيرينو، أوبائعات حلويات في الأمريكين وجروبي وتسيباس وقويدر، وفي أوقات فراغهن كن يبعن أشياء أخرى أنا أذكرها جيداً بحكم أننى كنت مراقباً حين قامت الثورة و.. و.. و.. وقاطعتنى مارجرىيت وهى تقول للسائحة اليونانية العجوز بأدب شديد: «سيدتى لقد جئت للمكان الخطأ وللشخص الخطأ.. وكان ينبغي على أن أنبهك من البداية إن مستر قدرى هو صاحب أطول لسان في القارة الأفريقية كلها.. وها هو قد نكد عليك بدلا من أن تنكدى أنت عليه.. فهل تكفين بذلك وتعودين إلى مقعدك، أم أحكى لك أنا أيضاً عن اليونانيين الذين رأيتهم في أستراليا»؟

وشمخت بأنفها السيدة اليونانية التى انتهت عمرها الافتراضى منذ ٢٠ سنة على الأقل.. وقامت من سكات دون أن تنطق كلمة أخرى.. ولم أرها بعد ذلك في العربة كلها حتى وصلنا إلى الإسكندرية. محجوز لنا ومدفوع مقدما في فندق من أشهر فنادق في الاسكندرية

يطل على البحر مباشرة وله شاطئه الخاص.. ومع ذلك فقد اضطررنا إلى البقاء بحقائبنا أكثر من نصف ساعة في بهو الفندق حتى ينتهى قسم الاستقبال من «البحث» عن الغرف المحجوزة لنا - والمدفوع أجرها مقدماً - وكأنها تاهت منهم أو سيرسلون لشرائها من فندق آخر.. بنات وشبان قسم الاستقبال متجهمون دائماً ويتعاملون مع النزلاء بكثير من الكبرياء والتعالى و (التنطيط) كما لو كان النزلاء لاجئين من فيتنام الجنوبية يطلبون معونة الشتاء من إدارة الفندق.. حتى يصل الأمر إلى التريقة على نزيلة عربية كانت تدفع إيجار جهاز فيديو وتليفزيون استأجرتها لكابينتها.. ولم تعرف موظفة الاستقبال الجميلة - في عز الموسم السياحي - الإيجار المطلوب للفيديو.

الغرفة فاخرة جداً، ونظيفة وشيك بكل المقاييس.. لكننى أفهم أن فندق ٥ نجوم تتبع إدارته فندق شبرد، أن يكون بكل غرفة تليفزيون ملون أو حتى أسود وأبيض، جهاز راديو، ساعة حائط.. لماذا يدفع النزيل نحو ٢٠٠ جنيه مصرى في الليلة الواحدة، للمبيت فقط، إذا لم يكن في الغرفة حتى هذه الأشياء البسيطة.. طلبت «مارجريت» مكواة لتكوى (چوبتها) التى ستخرج بها في المساء.. طلبت المكواة في السادسة مساء.. وخرجنا للعشاء وعدنا، ولم تصل المكواة إلا بعد منتصف الليل.. في الواحدة صباحاً رفعت سماعة التليفون في غرفتي لأطلب من عامل تليفون الفندق أن يوصلنى بفندق شيراتون المنتزه عبر الشارع، فرد على عامل التليفون بغلظة وجفاء وفظاظة كأننى أزعجته من نومه، ولم يعطنى المكالمة إلا بعد أن طلبتها منه ٣ مرات على امتداد نصف ساعة.. رأيت

صورة «سماح أنور» على غلاف مجلة مصرية أعجبت «مارجريت» وأرادت أن تحتفظ بها تذكراً، اشترتها من محل بيع الصحف في بهو الفندق.. البائع العجوز في المحل طلب منى ٧٥ قرشاً.. «ليه يا صديقى؟ دى مكتوب عليها إن سعرها ٤٠ قرشاً فقط»؟ فمد يده وأخذ المجلة من يدي ليضعها مرة أخرى بين المجلات المعروضة وهو يقول لى ببرود: «من غير ليه.. إحنا أسعارنا كده»!! فى كل فنادق العالم التى تعاملت معها، حتى لو كانت فنادق نجمة واحدة وليست ٥ نجوم، فإن إيجار الغرفة يشمل الإفطار أيضاً.. هنا لأ.. وإذا تجاسرت وطلبت فنجانين شاي فى غرفتك فى أى وقت فإن فاتورة الستة جنيهات التى ستدفعها فى كل مرة سوف تجعلك تفضل أن تأخذ تاكسى لتنزل إلى محطة الرمل لتشرب شاي هناك وترجع.. أرخص كثير قطعاً.

وحين انتهت إقامتنا طلبت من مكتب الاستقبال أن يرسل واحداً من حاملي الحقائب ليأخذ حقائبنا من الطابق الرابع إلى بهو الفندق.. بعد نصف ساعة لم يأت أحد فأخذنا حقائبنا بأنفسنا ونزلنا بها.. طابور طويل من الذين مهمتهم حمل حقائب النزلاء واقفون صفّاً طويلاً فى مدخل الفندق لا يفعلون شيئاً، وما أن تقف بحقائبك - التى أنزلتها من الغرف بنفسك - أمام مكتب الاستقبال حتى ينقض عليك ٣ أو ٤ من حاملي الحقائب هؤلاء لكى ينتزعوا منك الحقائب لينقلوها مجرد ١٠ خطوات من أمام مكتب الاستقبال إلى جوار باب الفندق الزجاجى.. فإذا أعطيت الواحد منهم جنيهها أبقى الجنيه فى يده المفتوحة الممدودة إليك وهو ينظر فى عينيك مباشرة باستنكار وكأنه سوف يشتمك أو يرمى الجنيه فى وشك..

ويبدو في النهاية أن عذاب الإقامة في الشقق المفروشة أهون كثيراً من عذاب النزول في فنادق الدرجة الأولى.

مارجريت لم تخبىء إلى الإسكندرية - وإلى مصر كلها - لكي تنام فترة العصر.. تركتاني نائما ونزلت هي و«ثناء» إلى الشاطئ الخاص بالفندق، ثم جلسنا بعض الوقت في بهو الفندق.. قالت «مارجريت» إنها تريد أن تتفرج على نوعية الناس الذين ينزلون في فنادق الدرجة الأولى في مصر في عز موسم الصيف هكذا.. وعادت إلى وهي مندهشة جداً: «كيف تقولون إنكم دولة من دول العالم الثالث، ودولة مدينة بليارات الجنيهات واقتصادها راكم على ركبتيه أمام الدولار والاسترليني والين والمارك، ثم يكون ٩٥٪ من نزلاء هذا الفندق مصريين؟!.. وهم ليسوا مصريين رجال أعمال أو في مأموريات عمل، لكنهم أسر وعائلات بأكملها بأطفالها وعبالها وشبانها وبناتها وخدمها وكلابها وقططها.. كيف تكون مصر دولة مدينة إذا كان كل واحد من هؤلاء قادراً على أن يدفع ٢٠٠ جنيه في الليلة الواحدة في الغرفة الواحدة، غير الأكل.. ومؤكد أن الأسرة كلها لا تنزل في غرفة واحدة.. هل تستطيعان تفسير هذه المعادلة الغريبة لي؟!»

ردت عليها «ثناء» بالعبرة المصرية الشائعة جداً هذه الأيام: «اكتبى لأمانة السعيد»!!

المهندس «ثروت أسعد» صديقي منذ أكثر من ٢٠ سنة، منذ أن كان مهندساً حديث التخرج حتى أصبح الآن كبير الخبراء في هيئة اللويدز العالمية للتسجيل البحري.. «ثروت» يدعونا إلى العشاء الليلة في (النادي

السورى) فى محطة الرمل.. أرى «ثروت» كثيرًا كلما جئت أنا إلى مصر، وكلما ذهب هو إلى إنجلترا بحكم عمله، لكننى لم أر ابنتيه «شيرين» و«نرمين» منذ كانتا طفلتين صغيرتين حتى فوجئت بها الليلة شابتين حسناوتين واحدة منها طالبة فى الجامعة، والثانية محصلاها فى العام القادم.. كانت مع البنتين صديقتها «دينا» فى مثل عمرهما.. البنات الثلاث تعلمن فى مدارس أجنبية طول عمرهن، لذا فلفتهن الإنجليزية ممتازة.. «نادية» زوجة «ثروت» رغم أنها مهندسة زراعية إلا أنها قد طورت لغتها الإنجليزية لكى تكون على مستوى ابنتيهما.. «ثروت» كبير الخبراء فى شركة «إنجليزية».. لذا فرغم أن القعدة فى النادى كانت طريفة جدا والعشاء كان فاخرًا جدًا، إلا أننى لم أملك إلا أن أتمس العذر للمارجريت فى الملل الذى كان يصيبها بين حين وآخر حين يستغرقنا جميعًا - بحكم العادة - الحديث باللغة العربية وننسى أن معنا ضيفة إنجليزية يجب ألا تتركها تشعر بالوحدة، وهى جالسة بين ٦ أشخاص جميعهم يجيدون الإنجليزية.. وطبعًا كان يضايقها أكثر أن نضحك كثيرًا على شىء ما أو على حكاية ما دون أن تشاركنا هى الضحك، فتكون قاعدة (زى الأطرش فى الزفة) لأنها لا تعرف لماذا نضحك!!

الفصل التاسع

راقصات الحكومة!

مارجريت تعود إلى إنجلترا يوم السبت القادم، لذا فهي تريد أن تطمئن إلى أن مكانها محجوز على طائرة مصر للطيران لذلك اليوم، ولا تريد أن تترك شيئاً للظروف.. فشلت تماماً في الاتصال تليفونيا بمكتب مصر للطيران في محطة الرمل.. فإما أن الخط مشغول باستمرار، أو إذا رن جرس التليفون فلا أحد يرفع السماعة ليرد.. لم يكن أمامنا بد من الذهاب إلى مكتب مصر للطيران في محطة الرمل بأنفسنا.

لابد وأن هناك طريقة أكثر تحضراً من هذه الطريقة.. عشرات من الناس يملئون المكتب بغير نظام وكأنه جمعية استهلاكية يوم توزيع الفراخ، ولا أحد يرد على أحد لأن الجميع يتكلمون في وقت واحد.. ولا أعرف إن كان العيب في عدم وجود نظام واضح للعمل في المكتب، أو العيب من موظفي المكتب، أو أن العيب فينا نحن جمهور المتعاملين.. لكنني لا أرى هذه الصورة أبداً إلا في مكاتب شركات الطيران العربية والأفريقية.. للأسف.

المهم أننا بعد دقيقة واحدة من وجودنا في داخل هذه المعمة أدركت أننا لن نصل إلى أى شيء مع هذه الزبطة، ويمكن أن نقضى هنا عدة ساعات دون أن ننهي شيئاً.. فأخذت «مارجريت» وانصرفنا وفي ذهني أن أتصل تليفونيا بالقاهرة بصديق لى عضو مجلس إدارة في مصر للطيران.. وأقترح على كل واحد من جمهور المتعاملين مع الشركة أن يبحث له عن واحد من أعضاء مجلس إدارة مصر للطيران، ويصاحبه.

كان اليوم هو يوم السياحة في الإسكندرية.. لم أزر المتحف الروماني من قبل في حياتي، لكنني حين زرته اليوم مع «مارجريت» شعرت بالسعادة الشديدة والفخر الشديد أننا لدينا في مصر هذا المتحف.. فهو متحف غني بمحتوياته المعروضة عرضاً جيداً، والشروح المكتوبة على كل منها واضحة جداً ووافية جداً.. وتمنيت لو أن الوقت كان أماناً متسعاً لكننا قد قضينا اليوم كله في هذا المتحف.. وذلك كان إحساس «مارجريت» أيضاً، التي انتزعته انتزاعاً من المتحف بعد ساعتين كاملتين، لأننا كان لدينا برنامج زيارات أخرى لبقية اليوم.

وبقدر ما كنت تبهها وفخوراً ونحن في المتحف الروماني بقدر ما بقيت (في نص هدمي) ونحن نخرج من متحف الأحياء المائية.. زرت متحف الأحياء المائية مرة وأنا تلميذ في ابتدائي ولم انبه به يوماً.. وزرته اليوم فاناكسفت جداً منه.. ولو كنت وحدي لهان الأمر، لكن وجود «مارجريت» معي، وهي السائحة التي أريد أن أرى مصر السياحية من خلالها فهذه الغرفة في البدروم التي ندعى أنها متحف الأحياء المائية هي شيء مخجل جداً وكأن مصر بلد في وسط الصحراء لا يطل على عدة

آلاف من الأميال على ساحل البحر الأبيض من السلوم غربا إلى رفح شرقاً، مروراً بمرسى مطروح، والعلمين، وسيدى برانى، وسيدى عبدالرحمن، وبرج العرب والدخيلة والعجمى والإسكندرية، وأبو قير، ورشيد، وجصّة، وبلطيم ورأس البر وبورسعيد، وبور فؤاد، والبردويل، والعريش.. وعلى ساحل البحر الأحمر من بور سعيد شمالاً إلى علبه وحلايب في أقصى الجنوب، مروراً بالقنطرة والاسماعيلية والسويس، وسواحل سيناء كلها، وخليج السويس ورأس غارب والغردقة والقصير وسفاجية، وبرنيس ورأس بناس.. وقد زرت هذه المناطق كلها، ورأيت فيها العجب من الأحياء والكانونات البحرية، التي لا يوجد ١ : ١٠٠٠ منها في متحف الأحياء المائية في الاسكندرية، الذي يبدو وكأنه قد أنشئ بغرض - فقط - تعريف أطفال المدارس الابتدائية في سنواتهم الأولى بعالم البحر واحدة واحدة وبالتدرّج دون أن يتخضوا ويفزعوا من البحر.. لكن أن نفتحه للسياح الأجانب ونقول لهم هذا هو متحفنا للأحياء المائية، فذلك يندرج تحت بند (الفش التجاري).. لأنهم سوف يكتشفون من اللحظة الأولى أنهم قد (إنضحك عليهم) ليس فقط في ثمن تذكرة دخول المتحف وإنما أيضاً في الوقت الذي بددوه في زيارته، ولو كنا قد أخذناهم إلى سوق السمك في المنشية لانبسطوا أكثر.

لذا فبعد ٣ أو ٤ دقائق في المتحف بدا على وجه «مارجريت» الضيق والإحباط.. وقبل أن أقترح أنا أن ننصرف كان المتحف - كترخييه - قد انتهى فعلاً.. فهو غرفتان أو ثلاث فيها فاترينات مضاءة شبه خاوية.. وكان بعضها خاوية فعلاً..

كانت شيئاً مهيباً حقاً قلعة قايتباى، أو طابية قايتباى البحرية.. يكفى أن تعلم فى البداية أنها فى مكانها هذا. منذ مئات السنين.. وقد شهدت تاريخاً بحرياً مثيراً: تاريخ المماليك الذين حكموا مصر قبل الحملة الفرنسية، ثم الحملة الفرنسية على مصر ونابليون بونابرت، إلى الحملة الانجليزية بعد ذلك بنحو ٣ سنوات، ثم تاريخ محمد على باشا الكبير وأسرته من بعده حتى الحديو توفيق الذى شهد عهده ثورة أحمد عرابى.. وكانت طابية قايتباى هى إحدى القلاع البحرية المصرية التى ضربها مع الاسكندرية الأسطول الإنجليزى بمدافعه عام ١٨٨٢ قبل ١١٠ سنوات من الآن لكى تحتل إنجلترا مصر ٧٢ سنة بعدها، حتى جاء جمال عبد الناصر فأنتهى هذا الإحتلال عام ١٩٥٤.

«مارجريت» لأنها فنانة تشكيلية أصلاً ودارسة تاريخ فهى ترى الأشياء بعين غير العين التى يراها بها الإنسان العادى أو السائح العادى.. لذا كان استغراقها واندماجها فيما تراه شديداً، حتى أنها اعتذرت للدليل الذى كان يرافقنا من إدارة القلعة، وطلبت منه أن يشرح لى أنا و«ثناء» باللغة العربية، لأنها تريد أن تقرأ بنفسها المكتوب باللغة الانجليزية تحت المعروضات و (تعيش الجو بنفسها).. وظلت تنتقل داخل الطابية ونحن وراءها فى ساعات كاملة نسيئنا فيها تماماً وكأننا غير موجودين.. وقالت لى ونحن نترك طابية قايتباى وراءنا قرب العصر: «لقد استغرقتنى المشاهدة تماماً حتى أننى تصورت نفسى أعيش فى هذه الطابية فعلاً منذ ٥٠٠ سنة».. فقلت لها بجدة: «كانوا الضباط والعساكر وقتها حابسينسطوا بشكل»!!

قالت ونحن فى السيارة: هل هناك شىء آخر فى برنامج اليوم؟! قلت: «قصر رأس التين» قالت: لقد حكيت لى عنه من قبل.. ذلك القصر الذى خرج منه فاروق آخر ملوك مصر مطروداً إلى إيطاليا بعد أن خلعتة الثورة المصرية عن العرش.. أليس كذلك؟ قلت: «صح» قالت: «أريد أن أرى القصر من الخارج فقط.. أريد أن أتخيل منظر خروج فاروق من قصره مدحوراً بعد مُلك لم يستطع أن يحافظ عليه» قلت لها وأنا أبتسم فى داخلى: «كما تشائين» ولم أقل لها إن مشاهدة قصر رأس التين من الخارج فقط كان هو بالضبط الذى فى برنامجنا.. لأننى كنت قد عرفت أن القصر لم يعد متحفاً ومزاراً سياحياً كما كان فى وقت من الأوقات، بل تحول إلى إدارة ما حكومية احتلته لأسباب عسكرية أيام حرب ١٩٦٧ ثم نسيت أن تعيده متحفاً مرة أخرى رغم مرور ١٩ عاماً الآن على آخر حرب مرت بها مصر.

مارجريت تبدو وكأنها مركبة جهاز إنذار فى معدتها.. فهى تنسى ساعة يدها طول اليوم ولا تنظر فيها إلا مرة واحدة فقط.. وهذه المرة الواحدة معناها أن موعد الغداء قد حان..

كان المهندس «ثروت أسعد» قد نصحنى أمس بأن نجرب مطعماً جديداً افتتح مؤخراً على شاطئ الإسكندرية قرب قصر رأس التين.. ولم نستغرق وقتاً طويلاً فى العثور عليه.. مطعم شيك فعلاً بديكوراتهِ الشرقية. وإضاءته الهادئة من الداخل حيث الصالونات الأرييسك وعدد قليل جداً من الموائد، وبوفيه السلطات المفتوح الذى تأخذ منه ما تشاء بنفسك، وحسب اختيارك، وتضعه فى طبقك بنفسك وتعود به إلى مائدتك،

ثم القعدة الرئيسية والعدد الأكبر من الموائد في الـ (تيراس) الخارجى الكبير الذى يطل على البحر مباشرة.. القعدة رائعة والجو على بعضه جميل وشرقى وفاخر، والسلطات أكثر من رائعة وأكثر من مشبعة.. لكن السمك الذى جاءنا على الغداء كان صدمة لى - لى أنا على الأقل كأكيل سمك - فقد طلبت طبقاً من (السيبىط) أو (الكاليمارس) أغلى طبق فى القائمة، فجاءنى شىء جاف مقرمش وكأنه بطاطس (تشيس).. والسيبىط إذا فقد طراوته وليونته فقد طعمه.. ولم يكن منظر السفرجية الجادين جداً الصارمين جداً يوحى بأنك ممكن أن تطلب تغيير طبقك لأنه لم يعجبك، بل يجعلك تتصور أن هذا الطبق بحالته هذه قد مر على ١٠ زبائن قبلك أكل كل واحد منهم - أو قرقرش - قطعة واحدة من هذا (السيبىط التشيسى) ثم ترك الطبق لكى يصل إليك فى الآخر.

وحدث ربنا أنها جاءت فى أنا ولم تحدث مع «مارجريت» أو «ثناء»، لأن «مارجريت» - كأوروبية - لم تكن تتردد فى أن تطلب مدير المطعم نفسه لكى تطلب منه تغيير الطبق، أما «ثناء» فهى فضولية ولست أظنها كانت ستطلب أقل من محافظ الاسكندرية أو وزير الحكم المحلى. , مارجريت وثناء (جاين على هوا بعض).. فبينما أحب أنا أن أنام قليلاً فترة العصر طالما أنا موجود فى مصر - وهى العادة التى أحرم منها تماماً طوال وجودى فى إنجلترا - فهما لا تعترفان بمسألة نوم العصر هذه.. وإذا لم تستطيعا إغرائى بمكان ما نذهب إليه عصرًا فهما تتركانى نائماً وتنطلقان هما على راحتها.. وذلك ما حدث اليوم بعد عودتنا من جولتنا الصباحية. وحين أيقظتانى فى المساء كانتا متزوقتين ومتشيكتين وعلى سنجة

عشرة: «خير يا حسناوات.. عايزين إيه»؟!.. «ماذا لدينا في البرنامج للمساء»؟!.. قلت وأنا أعطيها ظهري وأعود إلى النوم من جديد: «مفיש برنامج في المساء.. جولة حرة.. روحوا اتمشوا على كيفكم» قلنا وقد جلست واحدة منها عند رأسى والأخرى عند قدمى، كناكر ونكير: «وهل يرضيك أن نتجول وحدنا ونحن ستات؟ مش خايف لاحد يخطفنا»؟! قلت وأنا أقوم متضررا: «هو معقول برضه حد يرضى يخطفكم»؟!؟

الجولة في حدائق قصر المنتزه التى تحيط بالفندق، أو التى بنى الفندق على حافتها في جزء بدا لنا صغيراً جداً بالنسبة إلى الاتساع الهائل للحدائق، الجولة رائعة فعلاً حتى أن «مارجريت» نسيت القصر نفسه ولم تهتم إلا بالحدائق فقط.. وقالت لنا إنه لاشك أن هناك جهة ماتفهم بشدة - وبمزاج - في شئون الحدائق، لكى تحتفظ بكل هذا الجمال على صورته هذه التى رأيناها عليه.. الحدائق وحدها تكفى.. ولست أدري إن كان كل هذا الجمال مفتوحاً للشعب أم لا ، لكنه ينبغي أن يكون.. فقد لاحظنا أن هناك بوابة على مدخل الحدائق لا تجازها إلا بتصريح يثبت أنك مقيم في الفندق الوحيد، أو في الشاليهات المجاورة له على جانبه، والتى أيضا لا أدري هل هى تتبع الفندق أم تتبع محافظة الاسكندرية، وهل هى للناس العاديين، لكل الناس، أم لفئة ما من الناس المهمين في الدولة، الذين أصبحوا الآن كثيرين ولاشك. وقد تبدو تساؤلاتي هذه كلها ساذجة. وأن الجميع يعرفون إجابتها ماعداى، فإن بعدى عن مصر فترة طالت إلى ١٥ سنة جعلتنى بعيداً عن كثير من الأشياء التى كنت قطعاً

سأهتم بها وبمعرفتها إن لم يكن كمواطن فعلى الأقل كصحفى..

لكننا على أى حال نستمتع الآن - جداً - بالتجول فى حدائق قصر المنتزه الشاسعة.. وننتقل من جزء جميل إلى جزء أجمل ومن موقع رائع إلى موقع أروع، والظلام والأضواء الخافتة المتناثرة فى أماكن، القوية فى أماكن أخرى تضىء على الجو كله سحراً فوق سحر.. حتى مررنا بسلسلة من المحلات وقفت «مارجريت» مخضوضة أمام واحد منها دون أن تتكلم للحظات، ثم سألت وهى مشدوهة: «الراجل ده بيلعب بياه؟ إيه اللى هو بيطيره فى الهوا ده وبعدين يخطه فى الترابيزة قدامه، ويرجع يطيره تانى؟» فقالت: «تباء» وهى تمسك بطنها من الضحك على حكاية (بيلعب بياه): «ده مش بيلعب.. ده بيعمل فطير».. «بيعمل إيه؟» «فطير».. «إيه فطير دى؟» «حاجة كده زى الهيتزا بس ألد كثير».. «هاها.. بيتزا مصرية.. أذوق».

أتصور أن الفطيرة لا يزيد سعرها عن جنيه واحد مثلاً، لكن المصيف وحدائق قصر المنتزه وشعر «مارجريت» الأحمر وشكلنا «السياحى» جعل سعر الفطيرة يصل إلى أربعة جنيهات ونصف!! لكن متعة مشاهدة عمل الفطيرة نفسها كانت تساوى أضعاف ذلك المبلغ.. فقد رأت «مارجريت» قطعة العجين المكببة فى حجم كرة التنس وهى تتحول فى يد الفطاطرى الشاب البارح إلى منديل رقيق جداً من العجين فى مساحة الطاولة الرخامية كلها أمامه، ثم وهو يرص فى هذا المنديل ويحشوه بعشرات من أصناف الجبن والزيتون، والبسطرمة وقطع الانشون، وبيض مسلوق، وجبن رومى مبشورة، وفلفل أخضر وفلفل أحمر، وعدد آخر من

أصناف التوابل ضاعت أسماؤها من ذاكرتى، بل لم أكن أعرف أساءها من الأصل، ثم وهو يطوى مندبل العجين فوق كل هذا الحشو ليصبح شكله فى الآخر فطيرة من العجين الأبيض لا ترى ما بداخلها، ثم يطقش بيضة نيئة لكى يدهن سطح الفطيرة بصفارها وبياضها معا وهوب: إلى داخل الفرن المحمى الذى تتوهج النيران بداخله و: «١٠ دقائق بس ويكون الفطير جاهزاً».

وجلسنا على دكة من الرخام الأبيض فى حديقة قصر المنتزه نلتهم الفطير الساخن الملهل، و «مارجريت» بين قطعة وأخرى من الفطيرة تفتح فمها على اتساعه وتهوى داخله بيدها لكى تبرد سخونة الفطيرة من ناحية وشعطة التوابل الحارقة فى حلقها من ناحية أخرى، وهى تقول بين حين وآخر: «ذلك هو أشهى عشاء تناولته فى حياتى حتى الآن».. (ملحوظة: قالت «مارجريت» ذلك عن كل عشاء تناولته فى مصر.. حتى الآن!! انتهت الملحوظة)!!

حين نظرت مارجريت فى ساعة يدها قلت لها مندهشاً: «ما انت لسه متعشية حالاً آهه.. لحقتى جعتى تانى»؟! قالت: «ساعة اليد يامستر قدرى لها أحياناً فوائد أخرى غير تذكيرك بمواعيد الأكل.. إنها فى بعض البلاد الشرقية، مثل مصر، ممكن أن تذكرك بمواعيد الرقص الشرقى»!!.. كنت قد نسيت تماماً.. قلت: «آه والله.. عندك حق.. ياللا بينا».

توقعت أن أجد زحاماً هائلاً على باب المسرح الذى تقدم فيه فرقة رضا عرضها الصيفى فى الإسكندرية، لكننى لم أجد أحداً على باب المسرح، ولا حتى باعة اللب والسودانى.. ظننت أن العرض قد تأجل أو

أن الإعلان قديم ومتروك هكذا في مكانه منذ الصيف الماضي.. لكن المسرح من الخارج مضاء وشباك التذاكر مفتوح وبداخله سيدة سمينة لا أدري كيف استطاعت الدخول من هذه الفتحة الضيقة للشباك، على رأى النكتة القديمة.

في داخل المسرح كانت الصدمة الأولى.. فرقة رضا بصيتها وشهرتها لم تستطع أن تجتذب إلا هذا العدد الضئيل جداً من الجمهور الذي لم يكف للملء السء أوه صفوف الأولى، بينما بقية المسرح على اتساعه - وهو كبير جداً - فاض تماماً بشكل يثير الأسى.. آخر مرة شهدت فيها فرقة رضا كانت منذ نحو ١٠ سنوات، حين قدمت حفلة واحدة في لندن بدعوة من المركز الثقافي المصري هناك.. وكان عرضاً ناجحاً ورائعاً بكل المقاييس التهبته له أكف المشاهدين الإنجليز قبل المصريين.. وكانت «فريدة فهمي» وقتها لازالت نجمة الفرقة بينما كان «محمود رضا» قد اعتزل الرقص بعد أن أصبح وكيلاً لوزارة الثقافة.. ما يصحش إن السيد وكيل الوزارة يرقص..

ولن تكن «مارجريت» قد شهدت رقصاً شعبياً مصرياً من قبل، لكنني و«ثناء» حدثناها عنه وعن فرقة رضا بحماس شديد وكيف أنها ممثلة مصر الرسمية في الرقص الشعبي وأن لها شهرة عالمية بعد أن قدمت عروضها في العالم كله من روسيا إلى أستراليا ومن اليابان إلى أمريكا، وأن بطل الفرقة ومؤسسها وكيل وزارة قد الدنيا الآن، وبطلة الفرقة تدرس للدكتوراه في أمريكا وتحاضر في جامعاتها في نفس الوقت.. وووو... وبدأ العرض....

وظللنا طول العرض صامتين أنا و«ثناء» ومش عارفين نودى وشنا فين بعد قصائد المديح الهائلة التي أنشدناها لمارجريت عن الفرقة.. فقد كان العرض فقيراً جداً وباهتاً جداً، وليس فيه رونق ولا بهاء ولا رشاقة ولا خفة ظل فرقة رضا التي نعرفها.. وبدت كما لو كانت فرقة كفر شلشلمون الاستعراضية ترقص في مولد من موالد محافظة الشرقية..

وفي فترة الاستراحة أخذت «مارجريت» و«ثناء» ودخلنا إلى الكواليس لكي أحيى أصدقائي القدامى الباقين من أعضاء الفرقة: «الجداوى رمضان» مدير الفرقة الآن، وزوجته السورية «لطيفة لحام» و«فاروق مصطفى» مدربا الفرقة الآن بعد «محمود رضا».. وحين اطمانت «مارجريت» إلى أن «الجداوى» يجيد اللغة الإنجليزية قالت له رأيها بصراحة فيما شاهده حتى الآن ولا تظن أنه سوف يتغير في الفصل الثاني: البنات الراقصات لسن رشيقات كما يجب أن تكون الراقصات، ولا جميلات ولا حتى وسيطات، وشكلهن بلدى جداً باستثناء واحدة أو اثنتين نص نص.. وهن يرقصن كما لو كن موظفات حكومة تناولن عشاء ثقيلاً قبل صعودهن إلى المسرح مباشرة، لذا فحركاتهن ثقيلة، وابتسامتهن ثقيلة، وكأنهن يتعجلن موعد انتهاء العرض كي تعود كل منهن إلى أطفالها الستة في البيت، وووو....

أتصور أن «الجداوى» قد أمر - خلسة - بدق جرس انتهاء الاستراحة بدرى عن مواعده لكي يخلص من «مارجريت» ومنى...

في الصباح طلبت «مارجريت» أن نقوم بجولة أخرى في حدائق قصر المنتزه تراها فيها بالنهار بعد أن أعجبت بها جداً أمس مساءً.. فقمنا

بجولة طويلة لكى ترى بالنهار ما حجبها عنها الظلام والإضاءة الخافتة أمس ليلاً.. رأت القصر الذى كان يقيم فيه الملك فاروق وأسرته.. ورأت الفيلات الصغيرة الجميلة جداً التى كانت تقيم فيها وصيفات الملكة وحاشية الملك وسكرتيروه ومعاونوه.. ورأت قصر الضيافة الذى كان ينزل فيه ضيوف الملك المهمين.. وتجولنا فى الحدائق نحو ساعتين.. لكن كادت الجولة أن تنتهى بكارثة..

فى ١٧ فبراير عام ١٩٧٨ كانت الفنانة التشكيلية «مارجريت توملين» فى طريق عودتها من اليونان إلى أمريكا، وقررت أن تقضى يوماً واحداً فى جزيرة قبرص لكى تشاهدها فى جولة سريعة.. لكن هذا اليوم الواحد كان كافياً لكى تشهد فى الصباح التالى وعلى بعد خطوات منها إطلاق الرصاص على المرحوم «يوسف السباعى» ومصرعه فى بهو الفندق الذى نزلت فيه.. وكان مشهداً مفرعاً وتجربة لا تكرر مرتين فى حياة الإنسان العادى.. وحين سألت «مارجريت» عن من هو وما أهميته لكى يلقى مصرعه على هذه الصورة، قيل لها إنه صحفى مصرى كبير.. وظلت هذه الصورة عالقة بذهنها فترة طويلة حتى التقينا وتعارفنا، وعرفت أننى صحفى مصرى، فحكيت لى ما شاهدته وسألتنى: «هل تنتهى حياة كل الصحفيين المصريين هكذا؟!» فقلت لها: «ليس كلهم، العظماء منهم فقط» فسألتنى: «وهل أنت صحفى عظيم؟!».. واعتماداً على أنها لا تعرف اللغة العربية ولم تقرأ لى شيئاً فقد قلت لها على الفور: «طبعاً».. فظلت طوال سنوات معرفتنا تتوجس شراً من أى حد يقترب منى بشكل مفاجئ، وتتصور أنه يهاجمنى أو سوف يهاجمنى..

المهم: حين عدنا ظهرًا من جولتنا في حدائق قصر المنتزة ودخلنا بهو الفندق، سمعت اسمي ينادى عليه في الميكروفون الداخلى للفندق بأن أتوجه إلى مكتب الاستقبال للأهمية.. فذهبت لكي يبلغني موظف الاستقبال الشاب بأن صديقي وأستاذي الأديب «أنور عبدالله» ينتظرني في صالون الفندق.. واستدريت لأتوجه إلى صالون الفندق ففوجئت بفتاة شابة ترتدى بنطلونًا أسود. وبلوزة سوداء تهجم علىّ فجأةً وتحتضني بعنف وهي تهتف: «يا حبيبى يا بابا»!!.. ذهلت للمفاجأة، وتصورت أن الفتاة قد أخطأت وظننتى أو خيل إليها أننى أبوها، فأبعدتها عن حضنى قليلًا وأنا شكلى مخضوض فعلاً ونظرت إلى وجهها متفحصًا فلم أتعرف عليها. لأنه كان واضحًا أنها لسه خارجة من البحر حالاً، لأن وجهها مبلول وشعرها مبلول ونازل على عينيها يغطى جزءًا كبيرًا من وجهها.. لكن صوتها كان يرن في أذنى مألوفًا ومعروفًا.. وهى سعيدة تمامًا بحيرتى.. وحين أزاحت شعرها عن عينيها عرفتتها فورًا فدخلنا في حضن بعض من جديد فأنقذها ذلك من سن شمسية «مارجريت» التى كانت مندفعة كالصاروخ تحاول أن تطعن بها الفتاة التى ظننتها تحاول أن تعتدى علىّ!!

«نهلة»، أحب بنات الأسرة كلهن إلى قلبى وأقربهن إلى نفسى، ربيبتى، فقد تربت ونشأت فى بيتى منذ كان عمرها سنة واحدة، حتى دخلت الجامعة وسافرت أنا إلى أمريكا، وطول عمرها وهى تناديني «بابا».. وكانت تقضى أجازة صيف بالإسكندرية، فلم تعرف بوجودى فى مصر إلا عندما سمعت اسمي ينادى عليه فى ميكروفون الفندق الذى يسمع فى كل مكان فى الفندق حتى على الشاطئ، فخرجت من البحر تجرى لكي

تلحق بى وتفاجئنى عند مكتب الاستقبال، لكنها كادت تموت شهيدة سن شمسية «مارجريت» التى لم يغب عن ذهنها حتى الآن مشاهدتها لمصرع يوسف السباعى !!

أستاذى وصديقى الأديب «أنور عبد الله» واخذنا اليوم (مقابلة) كما قال لى.. فهو (بالأصالة عن نفسه) يدعونا للغداء على أكلة سمك فى مطعم على البحر مباشرة ملاصق لفندق فلسطين، وبالنيابة عن زوجته صديقتى الفنانة «سعاد حسين» لأنها مرتبطة بشغل فى التليفزيون لم تستطع أن تتركه لتجىء لتحظى بنا فى الإسكندرية، بلدها، فقد (كلفته) بأن يدعونا للعشاء باسمها فى نادى الصيد فى موقعه الجديد فى مواجهة قلعة قايتباى التى كنا فيها أول أمس.

قعدة الغداء على البحر مباشرة تملأ الصدر بهواء البحر المنعش ورائحة يود البحر تفتح النفس أكثر.. السمكة المشوية التى وضعها السفرجى أمام «مارجريت» قطعاً كانت صحتها كويسة جداً حين كانت لسه فى البحر.. سمكة هائلة الحجم تكفى أسرة مفجوعة مكونة من خمسة أفراد.. لكنها بعد خمس دقائق فقط كانت قد أصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق منها إلا شريط سلسلتها الفقرية بالشوك على الجانبين، وكأنها مغسولة ونظيفة وناصعة البياض !!.. ولو لم أكن أعرف أكلة «مارجريت» الصغيرة فى لندن لظننتها طول عمرها مفجوعة هكذا، لكن الجو فى مصر فتح نفسها على الآخر، وجو الإسكندرية فتح نفسها على مضراعيها، وربنا يستر فلم يبق معى - على رأى النكتة - غير عدة ملايين قليلة من الجنيهات !!

* * *

وحين أوصلنا مارجريت إلى مطار القاهرة مرة أخرى بعد انتهاء زيارتها لمصر، كانت قد قضت فيها ٢٥ يوماً أتصور أنها لن تنساها أبداً.. فمنذ بداية معرفتنا منذ ٩ سنوات وهى تحلم بهذه الرحلة..

وبمجرد وصولها إلى بيتها في ضاحية (ويمبلدون) في لندن اتصلت بي في القاهرة تليفونيا.. وظننتها تحصل لى تشكرنى على حفاظتنا بها خلال زيارتها، لكننى فوجئت بها تسألنى فى لفة سؤالاً غريباً:

- حسين.. نسيت أن أسألك عن شيء ما وأنا في مصر: هل الماء المثلج الذي عندك في الثلاجة في بيتك في القاهرة من ماء النيل؟!...

قلت لها مندهشاً:

- طبعًا من ماء النيل، فنحن لم نبدأ في استيراد الماء من الخارج بعد... لكن لماذا تسألين هذا السؤال؟

قالت:

- هل تظن أنني شربت منه. كفاية ليجعلني أعود إلى مصر مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، وأخرى، وأخرى.....

حسین قدری

لندن - نوفمبر ١٩٩٠

فهرس

صفحة

٧.....	: في بيتنا مارجريت !	الفصل الأول
١٨.....	: مارجريت في قسم البوليس !	الفصل الثاني
٣٤.....	: نابليون بونابرت.. أجازة يوم الجمعة !	الفصل الثالث
٥٢.....	: مارجريت تكتشف سماح أنور	الفصل الرابع
٦٩.....	: جريمة في الحمام !	الفصل الخامس
٨٩.....	: حين كان إيجار البيت في مصر.. شلن !	الفصل السادس
٩٩.....	: ضابطات بوليس مستوردات	الفصل السابع
١١٤.....	: أطول لسان في أفريقيا !	الفصل الثامن
١٢٥.....	: راقصات الحكومة !	الفصل التاسع

اقرأ في هذه المجموعة

صوت أبي العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
في بيتي	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة في الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطن	يحيى حقي
العشاق الثلاثة	د . زكي مبارك
سيكولوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهواني
الحب والكرهية	د . أحمد فؤاد الأهواني
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهي
الأمن والسلام في الإسلام	د . جمال الدين الرمادي
الغزالي	طه عبد الباقي سرور
الإمام المراغي	أنور الجندي
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

د . سامى الدهان
د . عبد الحميد إبراهيم
محمد عبد الغنى حسن
إبراهيم عبد القادر المازنى
عباس خضر
محمد فهمى عبد اللطيف
خليل شيبوب
عادل الغضبان
صوفى عبد الله
رجاء النقاش
محمد محمد فياض

شاعر الشعب
قصص الحب العربية
غرائب الرحلات
عود على بدء
غرام الأدباء
أبو زيد الهلالي
عبد الرحمن الجبرتي
ليلي العفيفة
نساء محاربات
أبو القاسم الشابي
جابر بن حيان

١٩٩٢ / ٢٦٠٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3629-2	الترقيم الدولي

١ / ٩١ / ٢٦٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرا

هذا الكتاب هو أحدث ما كتب الكاتب
الصحفى حسين قدرى الذى يعيش فى
إنجلترا منذ ١٥ سنة.. وحسين قدرى هو
أكثر الكتاب المصريين إنتاجاً فى أدب
الرحلات بعد أن تفرغ تماماً لهذا النوع من
الأدب منذ أكثر من ٢٥ عاماً..
والكتاب.. يتميز بأسلوبه الرشيق المرح
المشاكس الذى اعتاده القراء وأحبوه من
خلال رحلاته العديدة المنشورة التى
صدرت معظمها عن دار المعارف..

١٠/١٧١٦٠٦

